زكرياء غونام

في المحطة البيضاء

رواية

دار الوطن
للصحافة و الطباعة و النشر

في المحطة البيضاء

رواية

دار الوطن
للصحافة و الطباعة و النشر

زكرياء غونام

في المحطة البيضاء

رواية

دار الوطن
للصحافة و الطباعة و النشر

معلومات

الكتاب : في المحطة البيضاء
الكاتب : زكرياء غونام
الصنف : رواية
اللغة : العربية
عدد الصفحات : 86
الحجم / المقاس : 21x15 سم
التدقيق اللغوي : دار الوطن
لوحة الغلاف الفنانة فدوى كدور
الإخراج الفني و الغلاف: هند الساعدي
الطبعة الأولى : 2024
السحب: مطبعة بلال

الناشر :
دار الوطن للصحافة و الطباعة و النشر للطباعة والنشر
7، زنقة الكوفة، الرباط 10000 -
المملكة المغربية
الهاتف الأرضي: 212537702120+
الهاتف الجوال: 212673420256+
البريد الإلكتروني:
daralwatan2018@gmail.com
صفحة فيس بوك:
facebook.com/daralwatan2020

رقم الإيداع القانوني: 2024MO2643
ر.د.م.ك : ISBN : 978-9920-542-11-1

حقوق الطبع محفوظة للكاتب

قال لي صديق ذات مرة، ونحن نحتسي قهوتنا الدافئة بجوانب الكلية، ونتفرس في وجوه الناس:

"عاملة النظافة تكنس الغبار وإلى ما شابه، وتلقي نظرة على طلبة الكلية يمرون أمامها واحدا تلو الآخر، يلوحون بكتبهم وبأفكارهم المستخلصة. تحدق بعد كل نفس جديد تأخذه، لا أدري في ماذا تفكر؟ لكن الظاهر تمنيها أن تكون مكان أي أحد من الطلاب، وربما ليس هذا ما تفكر فيه، ربما لا ترى الطلاب فقط وإنما الأساتذة، وتتمنى لو كانت مكان أحدهم... أرأيت كيف نربط متمنيات الناس بمراتبنا، ولا نمنحهم حق التمني فيما هو أرفع من مراتبنا؟"

«إن مشيت على شارع لا يؤدي إلى هاوية.
قل لمن يجمعون القمامة: شكرا».

محمود الدرويش

إهداء

أُهْديكمُ البَيْضَاءَ يا قُرَّاءُ
وَالحرفُ إِنْ بِمَثيلهِ إِنْشَاءُ

وَالسّردُ مِنْ أَقلامنَا إِلْقَاءُ
مِنْ شَخصياتِ فُصُولِها العَجْزَاءُ

إِنْ تُنْسَبِ الأَحداثُ والأَسْمَاءُ
تَبْقَى المَعِينَ كَأَنَّهُ الإِمْلاَءُ

أَهَديَّةُ الأفكارِ أَمْ إِيتَاءٌ
مِنْ مَوقفٍ؟ فَكلاهما إِهْدَاءُ

إِنْ قارئًا أَمْ كاتبًا سِيّانٌ
إِنَّ الكتابَ مَحطّةٌ بَيْضَاءُ

تدعى خديجة

بـزغ صبـاح يـوم جديـد يـكاد لا يختلـف عـن غـيره مـن الأيـام، بجـو أشـبه بـذاك الـذي شـهدته أيـام هـذا الأسـبوع، شروق مـضيء بخيوطـه المموّهـة بالبهجـة، لم يتخلـف عـن موعـده طيلـة الأسـبوع، إنمـا هـو بسـمة شـمس مـن تعودهـا قـد تهللـت، كاشـفة عـن ثغـر السـماء، وتلـك الغيـوم البيضـاء تسـتهويك بشـدة حتـى تغـرف منهـا قبضـة، فـإذا أنـت في حـيرة أتأكلهـا أم تغطـس وجهـك فيهـا... بـذاك قـد تبعـث في النفـس كل الرغبـة والميـل إلى سـفر أكانـت نهايتـه غروبـا منقضيـا أم أيامـا طـوالا، لا يهـم.

كانـت خيـوط الـشروق البريئـة- يـتراءى لـك أن اليـوم سـيكون لطيفـا معـك كلطـف شروقـه الجـذاب- تنطلـق وتتسـابق لتنتـشر فتمـلأ المقاعـد الفارغـة عـلى جنبـات السـكك، ريثـما يعتليهـا المسـافرون المتعـثرون في مصاحبة حقائبهـم، كملـوك يعتلـون عروشـهم نحـو شيء عظيـم هـم مقدمـون عليـه، ولـو كان عنـد البعـض مكلفـا فإنـه سـائر إليـه.

إنهـا وكعادتهـا تفيـض نشـاطا وحيويـة، تتقـدم بخفـة وحركيـة. كان واضحـا للغير أنهـا امـرأة عـسراء، كـما كانـت واضحـة جديتهـا الثابتـة في تأديـة واجبهـا بالتـزام، تستحسـن الأمـر نحـو خاطـر مرتـاح يسـعى لـه كل عامـل، لا يبـدو أنهـا ستتسـامح مـع أصغـر حبـة غبـار! كشرطيـة نظافـة تمـضي سـعيا نحـو أمـن المـكان.

وهـا هـي ذي الآن منكبـة عـلى تنظيـف أرضيـة الـدرج المـؤدي لمركـز المحطـة، منهمكـة بـكل تركيـز تمتعـت بـه لحظتهـا، حتـى صـاح أحدهـم قبالتهـا بصـوت خشـن يتأرجـح وسـط السـعال:

-خديجـة، لقـد كـدت أنتهـي يـا بنتـي... بـل إني انتهيـت، تسـتطيعين البـدء في العمـل...

كانـت تدعـى خديجـة، وكانـت سـيدة شـابة لم يتجـاوز عمرهـا بعـد التسـع والعشريـن سـنة، قصـيرة القامـة، مملـوءة الجسـم، ذات بـشرة بيضـاء تميـل إلى احمـرار يظهـر أكـثر مـع شـمس الظهـيرة حـين تنـال منهـا، واسـعة العينـين كعينـي غزالـة تحـدق بـك في انفـراد وسـط الغابـة، كغيرهـا مـن النسـاء الملتزمـات تضـع حجابـا يمنحهـا عفـة ووقـارا، ومظهرهـا الجـاد يظهـر أنهـا ذات طابـع صعـب عسـير، لا تقبـل المـزاح ولا حتـى فيـض الـكلام، رغـم أن هـذا ينكـره كل مـن يعرفهـا، وكل مـن يـرى ابتسـامتها المشرقـة عـلى شـفتيها، وبالمثـل شـبابها المـاضي مضيـا تـراه ثمـرة قطفـت أبكـر مـن موعدهـا.

وكتعبـير عـن احترامنـا الكامـل وقيمـة ذاك الإنسـان نقبـل رأسـه مـع بضـع كلـمات صغـيرة قـد تكـون دعـاء أو أي شيء رحيـم الشـفتين. إن مثـل هـذه الأشـياء تملـك مكانـة عظيمـة في مجتمعنـا، توابـث تجدهـا أينـما حللـت، عنـد الكبـير والصغـير؛ وعـلى ذلـك تربينـا.

كذلك قامت تقبل رأس الرجل وهي تقول له:

-دائمـا مـا تنجـز عملـك في وقـت وجيـز وبدقـة وإتقـان، لـذا فأنـت الشـخص الـذي لا نسـتطيع التخـلي عنـه، بالأحـرى لا أسـتطيع أنـا التخـلي عنـه، الحـق يقـال... (لهـلا ايخطيـك وصـافي)!

-لا! لا! هـذا لا شيء، إنـه مجـرد صنبـور، وإنـك بهـذا تقومـين بتدليـلي وتحسـيسي أن الأمـر شيء عظيـم، آه! إنـك تلعبـين بمشـاعري... ربمـا سـأذهب للمديـر وأطالبـه بزيـادة في أجـرتي... أرأيـت كيـف دفعتنـي للتفكـير في الأمـر؟

أخـذت تضحـك والسـعادة تطفـو عـلى ابتسـامتها، ثـم قالـت لـه بينـما كانـت تتفقـد الصنبـور:

-أنـت عـلى الأقـل تفهـم في مثـل هـذه الأمـور البسـيطة... عـلى سـبيل المثـال أنـا التـي درسـت إلى الجامعـة، وتحصلـت عـلى شـهادة الإجـازة لا أعـدو

كـوني متفرجـة لا تقـوى عـلى إصـلاح مثـل هـذه الأمـور، ببسـاطة، الحيـاة مدرسـة لمـن انفتـح عليهـا بـكل مكوناتهـا، ومدارسُـنا التعليميـة جـزء لـه أهميـة كـما لبقيـة الأجـزاء أهميـة كذلـك، ولا يمكـن أن نختـصر الحيـاة في الدراسـة فقـط... فهـا أنـا في النهايـة عاملـة نظافـة، أجـوب زوايـا هـذه المحطـة سـعيا للتنظيـف... أنـا لا أنقـص مـن قيمـة هـذا العمـل! حقـا لا أفعـل ذلـك، ولا حتـى مـن دوره الهـام في بيئـة نظيفـة تجنبنـا أخطـر الأمـراض وتزيـل اللثـام عـن جـمال الأمكنـة... عـلى كل حـال الحمـد للـه.

-دعينـي أذكـرك بـشيء هـام، رغـم أني لم أدرس إلا المرحلـة الابتدائيـة، ولا أدعـي أني سـأقول شـيئا عظيـما، لكـن الـشيء الأهـم هـو أنـك الآن امـرأة واعيـة تسـتطيعين الكتابـة والقـراءة والتحـدث بلغـة أجنبيـة وذاك هـو أسـاس التعليـم وليـس التوظيـف في وظيفـة قـارة مـع الدولـة... لقـد درسـك والـداك طبعـا مـن أجـل مسـتقبل أفضـل، لكـن الأهـم هـو أن تكـوني إنسـانة متعلمـة تسـتطيع مواكبـة الحيـاة والاندمـاج مـع المجتمـع في صـورة إنسـانة متعلمـة حاصلـة عـلى الإجـازة في القانـون، وأنـت تعلمـين أهميتـه -القانـون- في الحيـاة اليوميـة، فصاحبـه إنسـان لـن يتجـرأ غـيره عـلى خداعـه، وهـل أضيـف شـيئا؟ حسـنا: إن التعليـم يبقـى كمنـزل بنيتـه طـول هـذه السـنين، يمكنـك مـن الاحتـماء بداخلـه وسـط شراسـة هـذا العـالم.

كذلك قال وهو يتحسس الحمل الذي يحسه مَن هُم في مستواها.

-أصبـت يـا عمـي! أصبـت... هـذا مـا يغيـب عنـا نحـن معـشر المتعلمـين المفاخريـن في وقـت مـا بشـواهدهم، فـما إن يتسـلل اليـأس بداخلنـا حتـى تنطفـئ شـعلة التعليـم فنعـود كغيرنـا ممـن لم يتعلمـوا...

قال وقد جهز نفسه للانصراف:

-الحمـد للـه عـلى نعمتـي العقـل والصحـة، لـو نعلـم أهميتهـما لمـا تبعنـا أشـياء أخـرى...

اكتفـت بطأطـأة رأسـها توافـق عـلى المقـال ثـم انصرفـت هـي الأخـرى لعملهـا بعـد أن رافقتـه بنظراتهـا حتـى اختفـى بـين الجمـوع.

لقد كان الأمر منذ سبع سنوات، حين توّجت أخيرا بشهادة الإجازة في شعبة القانون. كم خيل لها لحظة تسلمها الشهادة أنها مقبلة على وظيفة جد قريبة، وافدة على مستقبل جميل، يمكنها الآن اجتياز مباريات التوظيف وعروض العمل، متخلصة من وضعها الأسري المزري الذي سترثه إن قضت حاضرها دون تغيير، لكن حاجتها الماسة للعمل مع شبح البطالة المرهق المؤنب إنما ألزما عليها القيام بأي عمل كان، مهما قل راتبه، متناسية مستواها الدراسي؛ رأته همّا ثقيلا أكثر مما هو منجاة وخلاص.

لا هي ولا جدتها الطاعنة في السن لهما رجل يعيلهما، ومن يتحدث عن الزواج وما قد يخفف من ثقل، فهي امرأة مطلقة ذاقت المرارة والكآبة من زواج لم يختلف أذاه كثيرا عن همّ الحياة، فرأت الفراق أفضل، معتزمة خوض صراع مع هذه الحياة سواء بمفردها أو مع رفيق جديد تتأكد قبل كل شيء خلوه من أي مشكل قد يكرر ما هربت منه، رغم استحالة الفكرة الأخيرة، فالإنسان بحر عميق حالك الجوف، حيث هناك النيات المبيتة تطفو فوقها الحملان الوديعة.

تتمتع خديجة وبشهادة زملائها بالجد والتفاني في عملها، قاطعة صلتها بأي تهاون أو تقصير قد يزورها ولو لحظة واحدة أثناء تأدية الواجب. كانت قد باشرت العمل في محطة القطار منذ قرابة الثلاثة أشهر، وكانت التجربة الأولى لها في هذا المجال، مدة قصيرة منذ التحاقها ومدح كبير في التزامها. إنها ومنذ قدومها لا تتأخر في توفير أبسط احتياجات العمال، بل وتنطلق دون إضاعة وقتها، مرتدية ملابس العمل البيضاء، كانت ساعية الرغبة على تجنيبها الاتساخ، لا ترى أنها تحتاج وضع كمامة حين يحتدم الصراع مع الغبار، بل تحارب في سبيل عملها، طامعة في نظرة شكر وإيفاء كأقل شيء، كغيرها من العمال المتفانين في تأدية الواجب؛ وهذا حقهم.

تراها ترتدي سماعات الهاتف المهترئة -في الصباح فقط- للاستماع إلى برنامجها المفضل على الراديو وقت الصباح، فلا غريب بينها وبين عملها وبرنامجها الذي يدوم قرابة الساعة، دون احتساب التوقفات الإشهارية التي تصيبها بتوتر خفيف ظاهر التأفف. كل هذا وهي في خدمة المسافرين الذين ورغم قلتهم، يتقدمون نحوها طلبا للمساعدة، أغلبهم معارف من الأهل أو الحي، بعضم يسعد للقياها، وبعضهم يتلذذ لرؤيتها هكذا، لعملها البسيط هذا.

كانت في وقت ليس ببعيد من صباح اليوم قد واجهت مشكلا صغيرا داخل أحد المراحيض، كان انكسارا في إحدى الحنفيات التي تضررت من قبل راكب مجهول ارتكبه ما ارتكبه مكملا رحلته في صمت متملّص، وما كان من خديجة، ولضرورة اتباعها عادة تنظيف المراحيض أولا، إلا أن طلبت في وقت عاجل إصلاحه. لبى هذه الحاجة زميلها العامل كحارس أمن في المحطة، كتطوع مزعوم منه. كان يتحول في بعض الأحيان إلى متعدد المواهب، يتقمص دور السباك أو الكهربائي... دعوني أحدثكم عنه هو كذلك، الحقيقة أن هذا العامل الذي يدعى «با إبراهيم» هو جارها الذي كان له الفضل من بعد الله في عملها هذا.

إن الرجل يقترب من الثانية والستين من عمره. أمضى جله وهو في هذه المحطة يجوب زواياها الواسعة: كمسافر يتنقل من مكان لآخر أيام شبابه، كعامل حامل مسؤولية الحياة أِلف الإبكار إلى العمل، يودع كل قطار ذاهب ويستقبل القادم، يمازح المسافرين بين الحينة والأخرى، خاصة أولئك الأطفال -بمختلف أعمارهم- المتمتعين بأولى رحلاتهم.

إنه رجل مكافح ما زال يصارع أطوار الحياة. له أسرة متكونة من ثلاث بنات، وصبي وحيد يبلغ من العمر سبع عشرة سنة؛ أخصه بذكر سنه لأنه يحكي عنه قائلا: «فتى لا يريد الدراسة ولا حتى تعلم حرفة، ويواصل العناد في الفراغ، يفرغ كل شبابه الذاهب في اللاشيء... أقول له دائما: هذه حال من لم يقرأ- عن حاله يتحدث- فلا تدع قدرك

شبيها بقدري، ها أنا أذهب يوميا للعمل باكرا ولا أعود إلا وقد نخرني التعب وسلبني ساعات من الراحة... لكن مع من تتحدث! لا يواصل إلا العشوائية في تسيير حياته! عمل متقطع لا يبلغ حتى ثلاثة أيام في الأسبوع».

إن رفضه الراحة في ظل سن كهذه يعود له؛ لجوانب في شخصه، كونه من الرافضين للجلوس في المنزل أو المقاهي، متذوقين سن الشيخوخة. هذا ما يرفضه الكثيرون، وأتى على حساب صحتهم، صحة وإن طال بها الزمن سترضخ تحت لواء المرض أو عجز الشيخوخة.

كان كل من يرى با إبراهيم يخيل إليه أنه أوروبي العرق، لشدة زُرقة عينيه، وشعره الذهبي الذي غزاه الشيب كما غزى شاربه الطويل، مع العلم أنه وكأي إنسان قد أتاه زمنٌ وجد نفسه مفتونا بمظهره، خائضا أحلامه بأبسط ما ملك. وإن جاءك وقت جالسته فيه، لا يدعك تفارقه حتى يحكي لك إحدى مغامراته في السبعينات أو الثمانينات، بأسلوب مفصل، تتوسطه تواريخ الأحداث، حقا! ليضيف شيئا من الصدق والجدية.

لطالما كانت خديجة تعني له الإبنة الرابعة، لا يفارقها وقت الشدائد، إذ هو من كان بجانبها زمن طلاقها المؤسف. كان يقوم بدور الأب الغائب، أب توفاه المرض رفقة زوجته التي لم تلبث طويلا حتى رحلت إلى دار المعاد هي الأخرى، مما خلف لدى خديجة شعورا بالوحدة الخانقة؛ لِما كانا يشكلانه من سند لها. فهو لم يقتصد يوما أي جهد في مساعدتها، وهي بدورها رأت فيه الأب الثاني، الأخ الوحيد، في ظل عزلة جافة باتت تعرفها منذ طلاقها.

أخذت تجول وتنظف ما بان لها يستدعي التنظيف، متزنة الخطى، في مرافقتها مكنستها البيضاء، وكيس قمامة، إلى أن ظهر لها با إبراهيم وسط ضجة المكان واختلاط الأصوات وقد انتهى من حمل علب كانت بها مواد تنظيف. راحت تكلمه وهي متأكدة من أنها اقتربت بالقدر الكافي الذي يمكنه من سماعها:

-كعادتـك يـا إبراهيـم، نشـاط وحيويـة طيلـة اليـوم، متـى سـتمدني بالوصفـة السـحرية؟ فربمـا ينجـح الأمـر معـي... كـما يمكنـك تأجـيري إياهـا، سـأدفع ثمنـا لا يقـاوم... فكـر في الأمـر.

أتبعت الكلام ضحكا متواصلا. رد عليها هو الآخر مازحا:

-وصفـة؟ توقفـي وإلا سـمعنا أحدهـم فاعتقـد أني أقـدم لـك وصفـة كعكـة بالشـوكولاتة مـع القليـل مـن المكـسرات، فيجـزم أني لا أفـارق المطبـخ. أتريديـن أن تجعـلي مـن عمـك أضحوكـة؟ هـذا عيـب...

زادهـا هـذا جرعـة ضحـك إضافيـة، كلاهـما يضحـك منتشـيا باللحظـة، إنهـا تلـك الفسـحة التـي يسـتغلها العامـل أقـصى اسـتغلال، ويحسـن التـصرف بهـا، لا يضيـع منهـا دقيقـة واحـدة، يـصرف جلهـا في تنفيـس الخاطـر، وسـبيلهم إلى ذلـك مـزاح وضحـك بـلا فواصـل، حتـى لكأنـك تحسـبه جنـون. يحـس بقيمتهـا كـما يحـس العطشـان بشربـة مـاء بـين كفيـه، ولا تسـتغرب إن قـام ينتـزع تلـك الفسـحة إذا شـعر أنـه بحاجـة لذلـك.

تابع يقول هذه المرة بلهجة جادة:

-أيـن هـي الصحـة يـا ابنتـي؟ بـاك إبراهيـم، بـدأت الصحـة تخونـه. نسـأل اللـه أن يمدنـا قـوة تجعلنـا أهـلا لمـن حولنـا لا عبئـا لهـم، فالعجـزة وإن اشـتد بهـم ضعـف الكـبر يتمنـون شـيئا واحـدا، ألا يصـل ذلـك الضعـف إلى عـبء دائـم طيلـة اليـوم... أن تتحمـل أعبـاءك نصـف يـوم ويحمـل عنـك الآخـرون النصـف الثـاني يبقـى أمـرا مقبـولا... فاللهـم حسـن الخاتمـة يـا رب... اللهـم حسـن الخاتمـة...

كان يـردد هـذا ويزيـل الغبـار عـن كلتـا يديـه. لقـد كانـت يـداه متجعدتـين متشـققتين تـبرزان مـا مـر منـه طيلـة عمـره، وأظافـره المحطمـة، ثـم أثقـل النظـرات.

ردت بصوت حنون تقبل رأسه:

-أطال الله في عمرك يا با إبراهيم، وأدامك فوق رؤوسنا.

-آمين يا ابنتي... (الله يرضي عليك).

-أتحتاج شيئا مني أنجزه لك على السريع قبل أن أباشر عملي.
-ها...!)يضحك(.
ابتسمت ابتسامة عريضة مضيئة تقول:
-العادة هي العادة، سيجارتان مع كأس قهوة.
وضعت ما بيدها من مكنسة وكيس، وها قد استعدت للذهاب وهي توجه له هذه الكلمات:
-رغم أني أحذرك لتركها... لكن ماذا عساي أقول... (الله اهديك وخلاص)!
انصرفت على نحو خاطف التنقل، تحضر له من المقهى الواقع في المحطة قهوته المفضلة «نورمال»، هي المحببة عند طبقة كبيرة من المدخنين، مع سيجارتين تعيدان له نشاطه-حسب ادعائه. ظل يحدق بها حتى اختفت بين المسافرين، يستشعر لطف وتهذيب هذه البنت تجاهه وما تفعله من خدمات لأجله.
قال يمدحها مدح الدين والدنيا:
-ياه، انظر لهذه البنت! ليست من صلبي ولا توفر جهدا في خدمتي، إني لأراها فضلى بناتي... (الله احفظك أبنتي دنيا وآخرة)!
وأخذ يضحك ضحكة خفيفة فارعة الأصوات، وهو يوشك على الالتفات للخلف ناداه ابنه يطرق باب الاستئذان بكلمته المعتادة «الواليد»، كان غير متفاجئ كأنما يعلم سلفا مجيئه، قد تكون عاداته هي السبب.
قال الإبن وهو يفرك شعره كأن به خجل من حركاته:
-أنا ذاهب لحضور المباراة... اليوم هو موعد الدِّربي... أحتاج شيئا.
-كان من الممكن أن تكون الآن عائدا من العمل وبيدك بعض الدراهم... دون كلل أو ملل تواصل الهراء. ألا تمل من حالك هذه! أنا مللت... حقا مللت... إلى متى سأعيش لدلالك؟ إني بلغت سنواتي الأخيرة، يا رجل انضج! فالحياة لا تمنح الأتاوى.

قال با إبراهيم ذلك وهو يسحب ما معه من مال، ويمده بعضا منه، ويعيد المتبقي، وقد كان أقل من المعطى، غير أنه وجد ابنه يتابع بعين شاردة بعض الشباب في مثل سنه، لهم من آخر صيحات الموضة: اللباس والهواتف وكل ما يبرز الفوارق الاجتماعية، وكأي إنسان تختلجه مشاعر التمني وتصحبه لقول «يا ليت...» فإنه بدا هائما إلى ما عند غيره، فقام يناديه أن يمسك المال، وقد عاتبه للحظة على الشرود لكنه صمت بعدها، لقد كان يعذره وفوق هذا كله يوافقه التمني.

مسك الإبن المال ووجهه يرسم ابتسامة عريضة، هي ابتسامة منتصر على عطف أب مهما تفوه به من كلام وقد زادت حدة القساوة إلا أنه دائما ما يخالفه، فتراه يعدل عنه في أول فرصة، وإن أي أب أو أم دائما ما تجد لديهما نقصا في الرضا تجاه ما يمنحانه لأبنائهم، يودان لو قدما لهم أكثر مهما بلغت العطايا والهدايا. والعجيب أنه في تعاملهما مع الغير يختفي كل هذا، قد يقسوان وقد يحنان ولكن ليس بذات المثل، كأنما يعيشان بقلبين وفي كل قلب مقدار متفاوت من المشاعر.

عاد يخاطبه بلهجة أقل حدة، وكأنها فرصته الأخيرة لينتشل هذا الصبي من المضي فيما يُغرقه في خموله:

-اسمع، قد أكون قاسيا بعض المرات، لكن جل ما أسعى له مصلحتك، إني أريدك أن تكون بجانبي، أن تساعدني في مصارعة هذه الحياة القاسية لا أن تصطف بجانبها فتكونا معا ضدي... صحيح أني درستك وتوسمت أشياء ككل الآباء، لكني لم أدرسك لتصبح موظفا أو وزيرا، بل إنسانا واعيا جاهزا لتحمل عبء الحياة، أن يكون لي وزن عند الناس بمجرد أنك شخص متعلم وصل المرحلة الجامعية... (الله ارضي أولدي لما دير عقلك)!

مهما تكثر الفرص التي يمنحها الأب، ومهما اعتقد أنها فرصته الأخيرة إلا أنه لا يقتل ذاك الأمل بداخله، من أين له بهذا؟ ربما هو ذاك الإحساس الذي يتشكل مع ولادة الأبناء، وربما قبل هذا، منذ علم

أنـه سـيرزق بمولـود، والجنـس سـيان... فيسـمو لمقـام صـبر لا ينالـه غـير الآبـاء، فاللهـم اجعلنـا أهـلا لآمالهـم نأويهـا طيّـا فتضـوى بهـا أيامنـا. أضيـف هنـا أن الأحاسـيس تـأتي مـع الحـوادث، لا نعلـم أيـن ومتـى؟ وهـل حقـا سـتأتي؟ لكـن الإحسـاس الـذي جئنـا عـلى ذكـره مؤكـد أنـك سـتحصل عيلـه عنـد أول خـبر يـزف إلى مسـامعك.

رد الإبن يقول:

-كـن مطمئنـا يـا أبي، غـدا سـأجرب حظـي مـع بعـض المصانـع والمقاهـي، وربمـا أمـر لبعـض المحـلات التجاريـة: ملابـس، وجبـات سريعـة... لا تخـف فابنـك كالسـبع، لا شيء يثنيـه.

-وجبـات سريعـة؟ أتقـول وجبـات سريعـة وأنـت لا تحـضر حتـى كأس مـاء حـين نحتاجـك! اغـرب عـن وجهـي فأنـا أريـد العمـل.

كان رد الإبـن سريعـا حـين ارتمـى عـلى رأسـه، مـرددا مـا يقولـه كل مـرة حـين يحـس إلى أي مـدى هـو مديـن لأبيـه «اللـه يطـول في عمـرك الواليـد» مقبـلا بيـاض الشـعر الشـاهد عـلى عمـر بلـغ حـدوده، ولـو أن العمـر ليـس أرقامـا بقـدر مـا هـو اسـتنزاف لطاقـة هـذا الرقـم.

رحـل الابـن منتـصرا عـلى مرحمـة الأب، وبقـي الأخـير منتـصرا كذلـك حـين لبـى طلـب ابنـه، ومنهزمـا حـين يفارقـه والحـسرة تتآكلـه لمجـرد وضـع ثابـت أبى أن يتغـير. عـاد بـا إبراهيـم لأجـواء العمـل، يلاحـق الـكلَّ بنظراتـه، تواصلـت بمـرور أحـد الأطفـال مـن أمـام ناظريـه، كان يتجـه متخبّـط المشـية، يحـاول الدخـول للمرحـاض تحـت تـردد، تراقبـه أمـه وتدعـوه لـلإسراع، فعـزم عـلى المشـاركة في المشـهد مشـجعا الطفـل عـلى المـضي نحـو المرحـاض، مطمئنـا الأم ألا تقلـق.

عـادت خديجـة وبيدهـا المطلـوب، تحـرك عينيهـا في كل الاتجاهـات، ذلـك أنـه مـا عـاد لـه أثـر، حتـى لصـوت جـد خافـت يصـدر منـه، ناعتـة إيـاه بكثـير الحـراك، متمتمـة بإحبـاط:

-أيـن ذهبـت يـا بـا إبراهيـم ثانيـة؟ لا تـدع مكانـا إلا وتقصـده... ربمـا

ذهب مع أحد المسافرين وقد نسي نفسه في الكلام، أوربما استدعته الإدارة... أيمكن أنهم رمقوا وضعنا واستدعوه للاستفسار؟ لا، محال... ماذا فعلنا ليحدث هذا الأمر؟ كانت مجرد كلمات مع ضحكات خفيفة، حسنا لم تكن كلها كذلك، فقد ضحكنا بقوة للحظة قصيرة... آه! كفاني من الأفكار المتشائمة، ولأواصل البحث.

واصلت نظراتها التفقدية وكلامها الخافت، حتى ظهر لها ماسكا بيد هزيلة بارزة العروق طفلا، مسلّما إياه لأمه، هذا قد شفع له عندها، مبددا في زمن قصير- كان بمسافة تموضعها وهي تبحث إلى موضع التقائهما- كل ما راج داخلها من إحباط وقلق.

خاطبته وهي تناوله القهوة:

-تفضل قهوتك حتى تستعيد نشاطك، رغم أنك تكون نشيطا على مدار أربع وعشرين ساعة)تمازحه(.

-أجل! كما أني لا أنام من فرط القوة التي تفيض من جسدي.) يجمع قبضته بقوة(.

ها هي تضحك مرة أخرى واضعة يدها المبسوطة على فمها، كأنما تنذر أن ضحكتها ستطول.

تابع با إبراهيم يقول:

-جميل أن يجاملك أحدهم، حتى لو كانت مجاملته هذه أقرب لباب المزحة. أنت على الأقل تريحين قلبي المتعب، أما ذاك... (ذاك المسخوط).

عاد ليضيف على السريع:

-أوَ لم تعلمي أنه كان هنا منذ قليل! أبدى حاجة شديدة إلى المال، هناك مباراة اليوم... كصبي صغير لا زال يلاحق المباريات والملاعب، أنا متأكد أن تلك الملاعب ستأتي بآخرته...

ردت خديجة متفاجئة:

-أكان هنا؟

-جاء ليزيد ضغطي لا غير، وأنا منحته ما أراد؛ يظل ابني.
قالت خديجة تواسيه:
-لا تشغل بالك، هكذا هم شباب زماننا. إن شاء الله سيكبر ويصير سلوكه عقلانيا.
أردفت تقول:
-الحقيقة أن العائلة والآباء نعمة تنتشل مجتمعنا من مصير حقا كان سيوجع معضمنا، هذا التضامن الذي يكفل الأفراد، ويجعلهم في مأمن من أضرار الحياة، كأن تجد الأب يواصل تحمل مصاريف ابنه وهو يقترب من الأربعين من عمره لَشيء عظيم لن تجده في المجتمعات الغربية، فهذا الذي يدفء مجتمعنا من صقيع الحياة.
-نعم، وإني أعرف رجلا يبلغ الثمانين من عمره يتحمل مصاريف ابنه المتزوج وحفيده المتزوج هو الآخر في منزله الكبير القابع في الحي المجاور لحينا، يردد المسكين قائلا: وأين فراقهم عني ما دمت أنا كبيرهم؟ كما أنهم يملؤون المنزل أصواتا، وذلك لا غنى عنه لمن هم في سني.
وتابع يقول:
-وأنا أتوسم فيهم خيرا في الأيام القادمة مهما أبديت من تذمرات وصلابة في متطلباتي... حسنا لأدعك تواصلين عملك، فإن استمرينا في الحديث فإننا سنطرد... (غدا نصبح أنا وياك كنقلبو على خدمه جديدة).
قام من مكانه راحلا تجاه موضع عمله الواقع في السكة رقم اثنين. تاركا الجو في حالة قهقهة، إنها خديجة، لا تكاد تتوقف عن الضحك وهي برفقته، وكلما نال منها التعب وضاقت نفسها الرحبة، توجهت للبحث عنه، تعلم علم اليقين أنه سيضحكها. إنه إنسان عفوي بسيط في كلامه وكل ما يصدر عنه. وإن الإنسان حتى إذا سعى إلى السؤال في مجمع، تراه يسأل بسيطا كي يلقى إجابة بسيطة، يطمئن داخله قبلا، يتأكد أنها لن تكون إجابة متعالية الرد. وها هو الآن يجهز داخله من استعداد نفسي وكلام مختار توجهه صفّارة كم أتعبت رئتيه المنهكتين المجهدتين بالتدخين المتواصل.

داخل المحطة

تشهد محطة الدار البيضاء المسافرين يوميا توافد مختلف الأجناس القادمين من شتى الأمصار، يجوبون كل أروقتها في لحظة تختلف من شخص لآخر، فهناك لحظة استكشاف لأولئك الزائرين لها أول مرة، تبهرهم بتصميم تقليدي يعلوه برج أبيض مع قبة خضراء تشبه صوامع المساجد، تتوسطه ساعة تظهر لك من كل الزوايا، وجناح حديث العهد يتميز بتصميمه العصري، يقودك إليه ممر كبير، وعلى حائطه ترى اسم المحطة بارزا وأنت تتدرج فيه... الشيء الذي أضفى رونقا من الانسجام الجذاب.

وهناك لحظة استراحة عادية مطمئنة لمن صار يتردد إليها، كما هناك حالة ترقب للذين يعدون الدقائق ولا يزيلون عيونهم عن موعد رحلتهم، لا لشيء إلا لموعدها القريب جدا، أما ورغبتهم في البقاء أكثر فذاك لا شك فيه، وقد تجد حتى ذاك الذي لا رحلة له، ولا حقيبة يجرها خلفه، لكنه يمضي بين الناس وضوضائهم، يستنشق كلام المسافرين، ويبتغي سماع عزف القطارات القادمة والذاهبة، تترجم سريعا كسنفونية موسيقية وليدة اللحظة، ولا شيء غير تلك اللحظة.

أنهت خديجة وعلى وجه السرعة عملها في جهة المراحيض. وها هي الآن تنظف الأرضية الموازية للمراحيض، متدرجة زاحفة نحو ما وراء الدرج الواقع على يمينها حيث كراسي الانتظار والشاشات المدونة عليها أوقات الرحلات والمحلات التجارية، وتجد الناس بكل أعمارها وأجناسها، جاعلين المكان في صخب مستمر دائم، هم رعاة الجلبة، البعض قعود

والبعض الآخر يقف مجموعات كما يقف فرادى، وأيضا منهم من يتبضع والآخر يحتسي قهوته على وضع تأهبي بسرعة، ليست كتلك التي نعرفها في مقاهي الحي، والأرض تعاني الخطى، وفي ذلك معاناة لمن هم على نظافتها ساهرون.

لقد كانت تتوقف لبرهة قصيرة حتى تمنح نفسها استراحة سريعة، نفسا جديدا، خاطفة بعض النظرات على محيطها؛ أناس تذهب وتجيء من حولها. يلقي بعضهم عليها نظرات تفحص، منهم من يشفق ويتحسر على تعب يطالها، والآخر في لامبالاة من هكذا مَشاهد، وكي لا نظلم بعضهم: السرعة في مواكبة الحياة ومكوناتها، وما أعطاه هذا للّذين حوّلهم نحو وجهة الأمان... كل هذا جعلهم في وضع يظهرهم وكأنهم ماضون نحو اتجاه فارغ.

إن الصياح والصخب اللذان تضج بهما المحطة والقادمين إليها من مختلف الوجهات: الأوروبي والأفريقي والأمريكي... كل هذا لا يشغل بالها، أو يجعلها تخجل من التنظيف أمام أعين الغير، بل ولم يشعرها أنها في ظلم من حياة لم تنصفها، لم تمنحها الرفاهية، وراحة تعدها أن كل ما تقاسيه الآن لن يقربها من السعادة، بل إن مشاهدتها لبعضهم مرتدين آخر صيحات الموضة، مع هواتف عملاقة ذي سماعات متطورة (رغم أن بعضهم يفضل الاستماع والتسميع: هم أناس يستمتعون، قد وصلوا أقصى درجات الاستمتاع لحظتها، يحبون مشاركة حالهم تلك) إضافة لتحدث الكثير منهم بلغات أجنبية، يعيد لها الرغبة في إنشاء غد أفضل على أنقاض أمس بائس تعيس لن يفيدها تذكره، ولو لأجل استدراك أخطائها، مع يوم يخبرها أن الكل ما زال بخير، وأن قطار الغد المشرق دائما متاح على كل السكك. فتحس أن شيئا بداخلها يتحرر، مستغلا ما وصلت إليه من أمل واندفاع نحو الأفضل، يثير أحلامها لتستعيد أولوياتها.

إن رؤية أحدهم يعيش حياة أفضل لا يجعل المرء دائما يلعن حياته، ويبين كرها لساعاته القادمة البريئة مما يحدث، ويشتم الوضعية التي

سـببت هكـذا حـالا، وإنمـا قـد يدفعـه شيء مـن هـذا للاسـتيقاظ؛ اسـتيقاظ نحـو أحـلام قـد هجرهـا عنـد أول خيبـة أمـل. حتـى ذاك الـذي ليس لـه الأمل، إنـه يرسـم في الهـواء في خطـوة سريعـة دون أن يـراه أحدهـم حلـما واحـدا عـلى الأقـل، خديجـة تشـترك مـع هـذا الصنـف الأخـير، قـد جـاءت للمحطـة وهـي في حالـة حطـام... والآن، إلى هـذه اللحظـة، قـد رسـمت لنفسـها حلـما واحـدا، محتفظـة بـه لنفسـها، شـاكرة كل مسـافر جـاء في ناظريهـا عـلى بارقـة الأمـل فيـما يخـص القـادم.

الأمـر طبعـا ليـس بالبسـاطة التـي يتصورهـا البعـض. فهـي مـا تنفـك تمـضي بعيـدة عـن ضجيجهـم وخطواتهـم المتسـارعة، وأنفاسـهم المتقطعـة، حاضنـين بطاقـات السـفر أكـثر لزومـا مـن المـال نفسـه، حتـى تجـد حالهـا البائـس وشـجاعة تجـرأت بهـا عـلى اللحظـة رافقتهـا طيلـة سـاعات العمـل قـد زالـت! بقيـت في المحطـة قـرب المكنسـة، تدعـو عـودة سـالمة لخديجـة، وربمـا التصقـت بمفكـرة أحدهـم كان يسـتنجد في صمـت زائـل.

إن مـكان السرقـة الـذي تعرضـت فيـه لسرقـة حياتهـا الشـبابية البريئـة، والوجـوه المألوفـة، لم يلبثـوا يذكرونهـا بالمـاضي... آه! كـم لمثـل هـذه الأشـياء مـن تأثـير كبـير في تقييـد روحهـا المتهالكـة والمثقلـة برفـوف مـن الهمـوم مـن الركـض خلـف بصيـص أمـل هـي تعلـم حـق المعرفـة أنـه قابـل للاضمحـلال. إن الفقـراء البؤسـاء لا طاقـة ماديـة لهـم في التجـرؤ عـلى التفكـير في سـبيل رحيـل جـريء مـن مـكان الوجـع. فالوضـع المـادي المـزري يلـزم عليهـم البقـاء والمحاربـة في سـبيل البقـاء لا الانتصـار. قـد يبـدو للبعـض أمـرا كهـذا بسـيطا كبسـاطة اعتقادهـم هـذا. إن رحيلـك وفي بالـك أنـك زدت معركـة أخـرى لمعـاركك لا يزيـد الحـال إلا تعقيـدا وغموضـا نحـو المسـتقبل.

كان مـن عادتهـا، حـين تنتهـي مـن تنظيـف مـا هـو مسـطر عـلى برنامـج التنظيـف، أن تسـير سـير المتحـاشي بتمهـل، بحثـا عـن كل مـا قـد يفسـد نظافـة تعبـت عليهـا هـي وزميلاتهـا، بـل ومنحنَهـا كل زفـرة نفـس عنـد البحـث، وعنـد الانحنـاء بالتقاطهـا، وعنـد تلويـث أيديهـن العذبـة في تـصرف خاطـف بجـرة

الأصابـع، سـعياً لإرضـاء خاطرهــن الــذي تعلــق بــشيء مــن النظافــة، ومنحــاً لــذاك المسـافر المسـتعجل عـلى الأغلـب.

وفي أعقـاب ذلـك، كانـت قـد صادفـت إحـدى المشرفـات عـلى النظـام تتقـدم نحوهـا، ومـا تسـتطيع سـماعه رغـم الجلبـة هـو قـوة كعبهـا العـالي الـذي يـدوي عـلى الأرض بدقـات قويـة لا يمكـن طمسـها، فالمـكان شاسـع يسـوده الصـدى. تجاوزتهـا في بـادئ الأمـر كأن بهـا شـيئ مسـتعجل هامـت فيـه، لكنهـا توقفـت وعـادت تسـتدرك وهـي تناديهـا باسـمها:

-هيه... خديجة، كنت قد نسيت.

كانـت سـيدة حـادة النظـرة، قويـة النـبرة، في لباسـها أناقـة مبالغـة رغـم سـنها الـذي قـارب السـتين، بهـا حداثـة وعصرنـة، فـلا تقدر حتـى في الخيـال أن تسـتحضر صورتهـا وهـي في عهـد السـبعينات، تترجـل مرتديـة لباسـها، كأنهـا مـا عرفـت إلا هــذا العـصر الــذي نحــن فيــه. وأقــوى شيء قــد يشــدك في مظهرهـا لفـة الحجـاب التـي كانـت تـبرز بشـكل واضـح حلقـات الأذن اللماعة ذهبـا. توقفـت خديجـة في الحـال، ثـم اسـتدارت عـلى نحـو خاطـف تمنحهـا كل حواسـها، وقـد سرت بهـا رعشـة توجـس وحـذر، وكـم كانـت في معظـم حالاتهـا إنسـانة خوافـة، تخـشى أن يكـون بهـا عيـب قـد صـدر ولم تتنبـه لـه.

فطنت المشرفة إلى حالتها، فاستدركت تقول مبينة كل خفاء:

-كنــت قــد لمحــت بعــض الأوســاخ في الســكة رقــم ثلاثــة، الأفضــل أن تنظـف في الحـال؛ ذلـك كل شيء.

وإذا نظـرت إلى خديجـة فهـي لم تجبهـا كلامـا، وإنمـا اكتفـت بـأن تحـرك رأسـها، وتعقـد حاجبيهـا مـع نظـرة جـادة، كأنهـا تـداري مـا سرى بداخلهـا منـذ لحظـة، وتبـدي عزمـا في تلبيـة سريعـة للأمـر الموكـول لهـا. أمـا المشرفـة فقـررت أن تواصـل الحديـث معهـا، فـلا شيء يغنـي ثقـة المـرء أكـثر مـن حديـث مـع الـذي سـبب فقدهـا.

قالت لها باسمة الوجه وقد ليّنت نبرتها:

-هــل اعتــدت عــلى أجــواء العمــل والمحطــة؟ إن الأمــر ليــكاد يكــون

صعبا في البداية، لكن ما إن تبدأ الأيام في التقدم يجد الإنسان نفسه قد اعتاد. المهم أني دائما هنا إذا ما احتجت لشيء، فإني أحبك مثل ابنتي... وعلى سيرتها فأنا الآن في عجلة من أمري، لقد اتصلت بي والغيض يكسو صوتها، لو تسمعين ما قد أغاضها لضحكت أشد الضحك، لقد حصلت أمس على شهادة السياقة، واليوم عزمت أن تسوق سيارة والدها إلى الجامعة، فصادفت بعض الصبية الصغار عند ممر الراجلين، وكما تعلمين وجهوا لها بعض الكلمات، فقامت تهبط وتطارد أحدهم (تضحك خديجة ضحكا خفيفا متقطعا) فتركت باب السيارة مفتوحا، والنتيجة: سرقة هاتفها وشجار مع بعض السائقين السائمين من الانتظار خلف الضوء الأحمر، وسوء تفاهم مع شرطي المرور انتهى بتحرير مخالفة... هذا الجيل يندفع بتهور كأنما لا يهاب شيئا، فإذا بك تجده في نهاية الأمر في الزاوية أقصى ما يستطيع فعله هو البكاء... على أي سأدعك تكملين عملك.

وأمسكت ذراع خديجة، وهي تمرر يدها كأن شحنة دفء وحِنية قادمة لتعصف بوحدة خديجة، وأكملت تقول:

-نلتقي غدا لأني لن أكون متفرغة اليوم، إذا احتجت لشيء اتصلي بي. هل نحن متفقتان؟

-متفقتان.

بين الخجل وشدة الاحترام، جف منبع الكلام، واكتفت بهذه الكلمة الوحيدة. إن حالها هذا لم يقِل عن أول يوم لهما، بل ولو أمضيا سنة كاملة ما تجرأت خديجة على أن تخرج عن خجلها أمام المشرفة التي لسبب ما أحبتها عن غيرها. وما حب الناس لك إلا حب من الله.

مضت خديجة إلى الموكول لها نحو السكة رقم ثلاثة، ملبية طلب المشرفة، تلبية تنم عن عزم بالغ التصميم في إنجازه، لما تكنه لها من احترام، ناهيك عن طبعها الغلاب في تأدية الواجب مهما وصلت له من تعب، فهي لا ترضى أن ينقص أحدهم من عملها. وهنا أشير لتلك الفئة

غير المبالية التي ترمي الأوساخ دون تهاون كأنها تتنافس، وهل في الأذى تنافس؟ الظاهر أن هذا ما صار عليه الحال. ألا كفوا أذاكم وارحموا فيه ضلعا تقلص من التعب، إذ يكفيه ما هو فيه... رجاء أنهوا اللامبالاة القابعة في أدمغتنا.

قد كانت تسير إلى وجهتها وهي تتفحص وتستقرئ القادمين قبالتها: أزواج يمسكون أيدي بعضهم، أبناء أحدهم غير راض بالمرة عن ملابس قد اقتنوها له، فيصرخ متوددا «أرجوك يا أمي لنعد...!»، أصدقاء يسخرون من صاحبهم وقد احمر خجلا بعد أن تجاوزته إحدى البنات وهو في سعي لمكالمتها. ثم يأتي وقت تذكر نفسها أن لا وقت للتثاقل، تجدد نفسها وهي تنتظر دورها على الدرج الكهربائي، لا تحرك إلا يديها المغطاة بقفازات بيضاء، مخبرة الكل بحق أسبقيتهم. فلا نزول لها على الدرج حتى تكون مؤخرته، تجنبا للاحتكاك؛ احتراما لرغبة الكثيرين في طلب متخف كهذا وراء عباءة السكوت، محتفظين به لأنفسهم، موجهين النظرات كتدخل احترازي.

هبطت إلى الموضع الذي وجهت له. كان لا يعج بالمسافرين، فالقطار المنطلق منذ قليل قد حمل جلهم، والصمت كأنه ريح هبت نسيما عليلا، أقول هنا: تعتريك راحة غريبة أنانية، كأنك كنت تقتسم معهم الراحة والمساحة، وحتى الكلام مع الغير، قد سلبوه منك، وبرحيلهم قد يكون لك نصيب من هذا.

أخذت تتفحص حجم المكان المتسخ حتى تشرع شروعا مريحا مطمئنا، معطيا إياها تخليا مبكرا عن المكان بشكله النظيف. فأخذت تلتقط الأوساخ المرمية من المواضع كلها، تكنس بلطف ما بدا في حالة تستوجب التنظيف. وقد كانت أوساخا غير جالبة للغبار، غير أنها حكيمة التصرف متجندة الحيطة حين بللت مكان التنظيف، قاطعة الطريق على أي غبار ثائر، وفضلا عن ذلك تكاد لا تتحسس منها أي سأم أو تأفف.

رجل الأعمال

ظلت عيناها تجوب زوايا الرؤية بحثا عن كل الأزبال المنفلتة، منهمكة في العمل منكبة عليه، إلى أن سمعت صوتا شفوقا عطوفا ينادي! كان الصوت لأحد الجالسين على مقاعد الانتظار، يدعو أحدهم للجلوس، تبين لها أن هذا الأحد عجوز تبلغ من العجز البادي على محياها ما يبلغه الرضيع من الضعف. يرافقها شاب نحيل طويل القامة، كان قد ناداها «يما»، الواضح أنها جدته، تستمر في تكرار «دعك بجانبي»، يا لقساوة المشهد، رؤية العجوز الذي كانت تتحدى الأيام وحدها في وقت ما، قد غلبت من فرط العجز الصحي، وعادت تنادي الآخر ألا يبتعد عنها.

-مروان، تعال واجلس بجانبي...

قالت العجوز هذا، متناسية أن المكان يتسع لشخص واحد من فرط ما خافت أشد الخوف البقاء وحيدة. لقد كان ظاهرا كم احتل فكرها هاجس الخشية من البقاء وحيدة.

رد حفيدها متأففا، وكان به تضايق وانزعاج شديدان جليان على وجهه النحيف من شدة تكرار الجدة للأمر:

-أين سأذهب؟ فقط استرخِ، ثم إن القطار يكاد يصل... (الله اِهديك أيما)!

وسط هذا، قام أحد الجالسين من مكانه المجاور يدعو الشاب للجلوس قرب جدته! حتى أنه تطفّل فطالبه بتلبية رغبات جدته العجوز مهما بلغت حرجا.

عبرت العجوز عن امتنانها وشكرها لهذا الجميل وأخذت تردد:
-أسأل الله أن يجازيك على هذا... (الله ارضي عليك أولدي).

عـبر هـو كذلـك عـن بالـغ احترامـه، بحيـث أشرق وجهـه في سـمائها المعتمـة تخوفـا، أمـا الحفيـد فقـد ابتلـع ابتسـامته بشربـة علـو وعجرفـة، يرجـع ذلـك إلى طبـاع مـن هـم في سـنه، يرفضـون النصح حتـى مـن أقـرب الأشـخاص، بـل ويذوقـون في ذلـك طعـم الإهانـة، إذ يخيـل لهـم أنهـم في غنـى عـن أي شيء يقلـص حضورهـم ويقـزم صورتهـم.

التفتـت خديجـة تحـدق في صاحـب هـذا العمـل الحسـن، وتعـود لتسرق بعـض النظـرات إليـه، فتشـبع فضولهـا الداعـي. كان رجـلا هـادئ المظهـر، بشـوش الوجـه، حولـه طاقـة دفء غريبـة، ذا قامـة متوسـطة، مرتـب المظهـر مـن شـعر طويـل مصفـف إلى مـا يرتديـه مـن معطـف بنـي اللـون، مـع وشـاح أسـود يلـف عنقـه. ظهـر لهـا كأسـتاذ جامعـي في البدايـة، لكنهـا عـادت تسـحب رأيهـا، كانـت قـد لاحظـت بين يديـه حقيبـة مـن جلـد بنـي اللـون ينْبئُـك مباشرة عـن ثمنـه الباهـض، حتـى لأولئـك القليلي الخـبرة في هذا الميـدان، فراحـت تنعتـه برجـل أعـمال، بمديـر شركـة... ثـم تعـود لتتخبـط في تخمـين وظيفتـه المجهولـة.

بعـد الـذي قـام بـه مـن تـصرُّف حسـن ينـم عـلى احـترام وتـآخ يصالـح بهـما صلـة التضامـن، وقـف بمـكان ليـس ببعيـد عـن المقعـد، وقـف وقفـة مسـتقيمة متأملـة إلى الأمـام، يتفحـص أحيانـا مـا حولـه، في داخلـه ترقـب قـد طـال للقطـار، حالـه كحـال الـركاب جميعهـم، أخـذ هاتفـه مـن جيبـه ملبّيـا رغبتـه الفجائيـة في إلقـاء نظـرة خاطفـة حثيثـة عـلى السـاعة، فيعـود سريعـا ويدخلـه بلباقـة زادتـه مكانـة. تقـترب منـه خديجـة مؤديـة عملهـا لا غـير، لا تتربـص بمـا لا يعنيهـا، فهـذا ليـس إلا جـزءا مـن يومياتهـا يحـدث بشـكل معتـاد، لكننـا أحيانـا نعيـش موقفـا مشـابها، بـل ومطابقـا لأشـياء كثـيرة مـرت، بنفـس جديـد، بـروح نظيفـة متجـرّدة مـن كل ماضيهـا.

رن هاتـف الرجـل -رجـل الأعـمال في نظـر خديجـة- فأخـذه بـكل أريحية

مـن جيبـه. بعـث هـذا إلى خديجـة أن حدسـها وتقديرهـا القائـم عـلى كونـه رجـل أعـمال قـد تراجعـت فرصـه، كـون رجـال الأعـمال يركضـون نحـو أي اتصـال يأتيهـم، يتلهفـون لسـماع أخبـار عـن صفقاتهـم وكـذا نتائجهـا، لكنهـا عـادت تتقـرب مـن رأيهـا الأول، إذ قالـت في داخلهـا:

-ربمـا هـو رجـل أعـمال، كان مرتاحـا للـرد عـلى اتصالـه... حقـا هـو مديـر شركـة مـن أولئـك المـدراء الذيـن لا يـزورون شركتهـم إلا قليـلا، لا يـأتي إلى مكتبـه حتـى تصبـح السـاعة العـاشرة، يسـتقبله موظفـوه بتحيـة الصبـاح، وأولهـم مسـاعدته التـي تمـده ببرنامجـه اليومـي... وإن لم يـأت لا يوجـد مـن يحاسـبه... حيـاة مدللـة! يدللـون أنفسـهم بأنفسـهم.

لكنهـا عـادت سريعـا لتطـرح سـؤالا وقـع ببالهـا في خضـم هـذا الحديـث الداخـلي، فتجيـب عنـه سريعـا، كأنهـا تتعمـد الغـوص في هـذا الحـوار:

-لكـن، أليـس رجـال الأعـمال، أصحـاب الـشركات، تكـون لهـم مجموعـة مختـارة مـن السـيارات تقبـع في طمأنينـة، وتدلـل بالتنظيـف والعنايـة أمـام الفيـلا؟ (وبيبيـه ألالـه و المـرأه والأولاد حتـى هـما، كل واحـد عنـدو طنوبيلتـو...!) فلـماذا سـيحتاج وسـلية نقـل وكل هـذا الانتظـار الممـل؟ أتكـون سـيارته معطلـة؟ وربمـا لـه عمـل بعيـد عـن شركتـه، أو ربمـا هـو مـن البسـطاء، محبـي العيـش في جـو اجتماعـي شـعبي، أجـل! ربمـا هـو كذلـك، فلشـهامة موقفـه مـع الجـدة العجـوز قـد يكـون المديـر البسـيط.

رد الرجـل عـلى الاتصـال بلهجـة حنونـة ولسـان رطـب، حتـى التفـت لـه حفيـد الجـدة يتفـرس ونظـرات التذمـر لم تفارقـه بعـد، مـا عـاد للمسـكين خاطـر فيـما هـو فيـه كأنـه مرغـم عـلى مرافقـة جدتـه:

-أهـلا أمـي، كيـف حالـك... حسـنا لقـد أجريـت معهـا اتصـالا منـذ قليـل... أعلـم يـا أمـي... لا تقلقـي، سـأعاملها معاملـة فـرد مـن العائلـة... لقـد حكـت لي مشـكلها... لا أخفـي عنـك أن أمرهـا ليـس بالسـهل اليسـير، فقضيـة كهـذه تحتـاج إلى التدقيـق أكـثر في أبسـط الأمـور... لا! لا! أعلـم، اطمئنـي... مـع السـلامة يـا أمـي...

أنهـى اتصالـه بـكل أدب يتمتـع بـه، لم يرفـع صوتـه، ولم يعـترض عـلى أمـر مـا، كل مـا بـدر منـه في الاتصـال يـدل عـلى تربيـة ولباقـة جعـلا خديجـة تحـاور نفسـها مجـددا:

-لباقتـه وأدبـه في الاتصـال يرفعـان مـن تخمينـي. أشـياء كهـذه لا تجدهـا إلا عنـد الطبقـة الراقيـة. فيـا رب، احفـظ أمـه عـلى تربيتهـا المثاليـة هـذه لـه... آه، آه! عندمـا يحـين الوقـت الـذي سـأنجب فيـه، سـأعتني بـكل الجوانـب الأخلاقيـة لابنـي، وأدرّسـه أحسـن تدريـس، كي يصـير رجـل أعـمال، أو موظفـا براتـب محـترم، وربمـا تشـكره عاملـة نظافـة كـما شـكرتُ أنـا الآن أم هـذا الرجل.

قالـت جملتهـا الأخـيرة متناسـية أنهـا ومنـذ قليـل كانـت ترفـض رفضـا قاطعـا زواجـا قـد يفتـح الجـروح الأليمـة، بـل غـاب اهتمامهـا للأمـر. يحـدث هـذا معهـا دائمـا. تتشـجع لأمـر وتنسـى مـا يقـع بداخلهـا، «ومـن هـذا الداخل أولا الـذي لا يريحنـي؟ فليذهـب لسـبيل حالـه ويتركنـي وشـأني.» ربمـا هـذا مـا تـردده. تجعلـه يفقـد الذاكـرة ولـو لثـوان، لكـن سرعـان مـا يعـود الأمـر برمتـه، فارضـا واقعـا مؤلمـا متعبـا كأنـه التعـب نفسـه.

-سيدتي، المعذرة... شباب اليوم لا يعيرون أي اهتمام للآخر.

كان هـذا رجـل الأعـمال! التقـط غـلاف بسـكويت لشـاب أنهـى مـا بداخلـه، راميـا في لحظـة غفلـة منـه الغـلاف في الأرض. ربمـا اعتقـد أن السـيدة التـي تنظـف، ومـن قربهـا لـه، سـتلتقط الغـلاف عـلى وجـه السرعـة، وربمـا لم يفكـر قـط بهـذا، فقـد أتى عـلى فعـل مـا فعـل و لم يتمعّـن في فعلـه، لم يـدرك إدراك عاقـل أنـه تـصرف قبيـح، أول مـن سـيلام عليـه تربيتـه، مـوازاة مـع لـوم سـيطال أبويـه أكـثر.

اضطربـت خديجـة، وزادت عيناهـا اتسـاعا مـن الموقـف. كانـت قـد تجمـدت في مكانهـا تحـدق بتصرفـه لا بـه. تسـابق الزمن لتسـتوعب وتسـتجمع اسـتيعابها. حتـى هـو لم يعـد ليكلمهـا، إذ اسـتدار كليـا يحـدق للأمـام، كـون الأمـر لا يسـتدعي منـه كلامـا فـوق الـذي قالـه، فحسـب اعتقـاده، هـو لا يعـدو كونـه كأي تـصرف حسـن يغطـي أخطـاء الغـير.

-شكرا سيدي!

كذلك قالت خديجة من فرط ما هربت منها أساليب التعبير، وتركتها تقاوم اللحظة بأبسط الكلمات، لكنها تظل الأرقى.

بدأ الصوت الآلي يكرر كلماته المعتادة «القطار القادم من... وإلى...» ينذر با إبراهيم ومن هم في موقعه بالتهيؤ للحفاظ على النظام. يبشر المنتظرين السائمين من دقائق تعذب راحتهم الحالمة براحة أكثر للاستعداد، منتشلين تخيلاتهم التي تعد بوصول سليم وهم في وجهاتهم من المستقبل. نهض الجالس من مكانه، والواقف أكد استقامته، قد سبق بخطوة استعداد. الكل يقف باحترام وتركيز، تكاد تراهم جموعا لا تحد مقدمتهم سوى سكة القطار.

وبمجرد مجيء القطار، بدأ البعض يتخلون عن هذا الاحترام وكل ما اتصفوا به منذ قليل من نظام. يتسابقون نحو الأبواب، لا يدعون حتى القادم به يهبط دون إلقاء كلمات من قبيل «المعذرة... المعذرة رجاء... رجاء، دعونا ننزل أولا... دعوا الأسبقية لنا...».

توقفت خديجة عما كانت تقوم به. كعادتها تنتظر هدوء المكان ليصعد الصاعد، ويهبط القادم، وينطلق كل في وجهته المختارة. ظلت تراقب ما حولها. تستعين بمكنستها للوقوف وقفة مستقيمة متسمرة. تبحث عن أن تُرى جديّتها بمظهر أكثر التزاما في تأدية الواجب. وفي نظرة من نظراتها الاستطلاعية، وقد كان الركاب في تناقص ظاهر، رمقت خديجة محفظة وحيدة تتكئ على أحد المقاعد بوضعية تنذر الناظر بسقوط وشيك كلي على الأرض. تشبهت لها بمحفظة ما مرت من أمام ناظريها. راحت تتسلل داخل ذاكرتها، تحاول أن تنقض على ذكرى قصيرة تنشطها، وتمنحها حق التذكر السريع.

عادت تقول وقد صارت متيقنة التخمين:

-نعم تشبهها! تلك التي كانت بيد الرجل... الرج ذاك!!

أخـذت تتفحـص المـكان، أيـن رجـل الأعـمال. تسـأل نفسـها: هـل صعد أم أنـه في مـكان قريـب يسـتعد للصعـود؟ كانـت تتحـرك بخطـوات متقاربـة، يـكاد جزؤهـا العلـوي فقـط يتحـرك. تجـوب أصغـر مسـاحة رسـمتها لنفسـها كحـدود جيئـة وذهابـا. متوتـرة النظـرات، مضطربـة الحـركات، كأنهـا تهـرب مـن وقـت يداهمهـا بغتـة دون أن تشـعر.

مـرت دقيقـة، كانـت تؤمّـل نفسـها أنـه سـيظهر، سـيأخذ حقيبتـه، لكـن لا شيء مـن هـذا وقـع. تجـرأت، فأقدمـت عـلى حمـل الحقيبـة، ضمتهـا إلى ذراعهـا الفارغـة، واضعـة مكنسـتها بحيـز ثابـت حتـى لا تتهـاوى وتسـقط. ترقبـت أي حركـة فجائيـة منهـا.

ورغـم مـا بلغتـه مـن حـيرة الفعـل، أخـذت تسـتعد، ووسـط كل هـذا رمقـت الرجـل مـن إحـدى النوافـذ القريبـة لبـاب الصعـود. دفعهـا هـذا لصعـود القطـار، وإنمـا عزمـت لهـذا بهـدف واحـد؛ تسـليمه الحقيبـة.

وقفـت مـترددة لثـوان امتـدت بمداهمـة الوقـت، حتـى خرجـت بقرارهـا قائلة:

-لا خيـار، سـأصعد! فربمـا بهـا أوراق مهمـة في مجالـه... لكـن هـذا مجهـول النتائـج... آه، يـا إلهـي! مـاذا لـو انطلـق بي القطـار؟

فها هي تضحك ضحكة ساخرة وتقول:

-حظا سعيدا... (لي ليها ليها(!

صعـدت أخـيرا القطـار. تحـس وكأن المـكان مـا عـاد يسـعها مـن فـرط مـا سـارت سـيرا سريعـا، واضعـة لنفسـها مـدة زمنيـة محـددة، والعـد العكـسي قـد بـدأ. تتجـاوز النـاس، غـير مبالية نظـرا لاسـتعجالية الأمر، تقـوم بإشـعارهم صائحة: «عاجـل! عاجـل!». كانـت واثقـة الفعـل مـن أنهـا سـتعطيه المحفظـة، راسـمة في خيالهـا لحظـة التسـليم، لحظـة الشـكر الـذي سـتتلقاه مـن الرجل، لحظـة الهبوط مـن القطـار بعـد إنجازهـا الصغـير هـذا والـذي سـتحتفظ بـه فقـط لنفسـها.

واصلـت التقـدم إلى أن وقفـت تتأمـل وتتسـاءل: «هـل النافـذة التـي تجاوزتهـا للتـو هـي التـي رأيـت الرجـل واقفـا عندهـا؟» كان الوقـت يداهمها،

عليهـا الإسراع، وإلا فالقطـار سـينطلق بهـا. راودتهـا فكـرة العـدول عـما هـي مقدمـة عليـه، فوضعهـا لا يسـمح بتـصرف كهـذا. وبينـما هـي ماضيـة في خطوتهـا، متخبطـة القـرار بـين العـدول أو الاسـتمرار، رأت الرجـل خـارج القطـار، كأنـه يبحـث عـما ضـاع منـه، يبـدي شـيئا مـن الإحبـاط في حركاتـه. نكـد يتسـيد اللحظـة التـي ظهـر فيهـا. ارتعـدت أوصالهـا وسـاورتها حـيرة التـصرف. «مـاذا أفعـل يـا إلهـي؟» هـذا مـا جـال في ذهنهـا اللحظـة.

انقبضـت نفسـها، وتسـمرت في مكانهـا، ثـم فكـرت، فـما كان منهـا إلا أن انطلقـت مسرعـة. لكـن! ليـس للـوراء الأقـرب للبـاب، بـل للأمـام البعيـد نحـو البـاب الآخـر. لا أدري مـا جـال في ذهنهـا حينهـا. أمـا عـن رأيـي: فالبـادي أن الإنسـان عندمـا يسـعى لهـدف يتقـدم للأمـام، وعندمـا لا يحقـق شـيئا يعـود للخلـف. يأخذهـا عـادة لاشـعورية عنـد أغلـب خطواتـه.

يـا سـادة، وبـكل أسـف، أخبركـم أن القطـار قـد انطلـق، انطلـق انطلاقـة تتزايـد سرعتهـا مـع كل مسـافة يقطعهـا، معلنـا بدايـة الرحلـة، وفي متمنياتـه السـلامة للـركاب.

ارتبكـت دواخـل خديجـة، واضطربـت اضطرابـا فوضويـا مـن شـدة مـا حصـل، مـا عـاد فكرهـا يسـلك المسـار المعتـاد مـن كـثرة مـا سـعت لفهـم الحاصـل. كان كل هـذا وهـي تتقـدم خطـوات جـد بطيئـة، دون إدراك منهـا. أحسـت في لحظـة مـا أنهـا وشـيكة الركـض، حتـى هرعـت نحـو البـاب، عـلى أمـل أن يتوقـف القطـار لسـبب مـا، فتسـتطيع حينهـا النـزول، وهـو شيء تعلـم أنـه بعيـد التحقـق. أخذهـا شيء مـن اليـأس والإحبـاط لمـا وقـع الآن. تسـتغرب قسـاوة الأمـر، وهـي التـي مـا نـوت إلا الخـير في فعـل لم يكـن يسـتدعي التضحيـة.

أخـذت تفكـر في صمـت قـرب بـاب القطـار. تتربـص بأقـرب حـل يـزور ذهنهـا المشـوش الـذي مـا عكـف يسـتنجد بحـل حتـى ينـصرف للسـؤال:

-يـا للمصيبـة! مـاذا أفعـل في حـالي هـذه؟ مـا مصـيري الآن مـع مسـؤولي المحطـة؟ سـأطرد جـراء الاسـتهتار... مـاذا سـيقول بـا إبراهيـم إذا لم يجـدني؟

أنــت حمقــاء يــا خديجــة، مجــرد حمقــاء... أكان عــلي حقــا اتخــاذ خطــوة متهــورة مــن امــرأة لا تعــدو كونهــا عاملــة نظافــة أقــصى فــترات غيابهــا جلــب ســيجارتين لبــا إبراهيــم مــن المقهــى؟... غبيــة! غبيــة!

حقيبة تجول

كانت كل مسافة يقطعها القطار، كل مدة زمنية تنقضي، يزداد أسفها لما قدمته من موقف شجاع، وحيرة تملّكتها حتى لبثت في قلق وانهيار تام. وراحت تلتفت في جانبيها محدقة بمحيطها. ثم امتنعت في التحديق مجددا، مكتفية بما وراء زجاج باب الصعود من عالم ظهر كم هو متسارع النقلات، لا يمنحك وقتا كافيا للإمعان، بدا لها انعكاس لما يحدث داخلها الآن. فمن شدة اضطرابها المتسارع، تمنت للحظة أن تمسك بفكرة تخرجها من حالها الذي -وعما قريب- سيظهر للغير حالا بائسا منهارا.

اصطدم رأسها بجدار من الأسئلة. وما عادت تستطيع طمأنة نفسها. فعهدها على التفاني والاستقامة سينكسر، وتختفي تلك الصورة المأخوذة عنها. حالها صار كطائر منذ قليل كان يحلق بحرية وسط نسيم من الهدوء، والآن صار مكسور الجناح ينتظر مصيره. فاجتاحها شيئا فشيئا حزن كبير مرده إلى شدة القلق والخوف، ومدة العمل القليلة.

تأتي على الإنسان لحظات انهزام تبلغ مبلغ الخطر على الشعور، فيأتي صوت من الداخل ينبعث خلال دقيقة الصمت التي رُحت تحادي فيها أقرب حائط ليضمك، فتستند عليه حتى لا تسقط كل ذرة أمل، صوت مبعوث يصيح في كل ضلوعك ، حتى ينشرح الصدر، ربما هو التوازن الإلهي الذي يتدخل من أجل تذكير الروح بأن أقصى الحوادث ما كانت لتبلغ الموت، هي أيام صعاب وحتما تمُر، وكذلك أيام فرح وحتما تنقضي، إن اليأس قاتل والفرح غادر.

بين كل هذا خاطبها داخلها يطمئنها:

-وماذا قد يحدث؟ هل سأموت مثلا؟ آه، بل سأمنع من العمل في كل مكان بهذا العالم... وكيف تعتقدين أنهم لاحظوا غيابك؟ وهل هم حقا يلاحظون وجودك حتى؟ كفاك تخريفا، ساعة غياب وستعودين، عندها ستختلقين أي مبرر آخر...

قيل هذا وسرب من الهدوء غزا داخلها. تتشبت بأتفه الأمور، وتعود لتكسر هدوءها بأتفه الأفكار والوساوس. جل ما شغل بالها كان أن يتسبب هذا في طردها، فهي خائفة ماضية في خوفها، لأن الأمر وبكل بساطة يتعلق بالمدة التي عملت فيها، كون الأشهر الثلاثة لم تجعلها تمر بحدث كهذا ولا هي أقدمية تشفع لها الغلط، كما لم تُكسبها الاعتقاد اللازم أن هذا شيء عادي، لا يستدعي كل القلق والاضطراب المصاحبين لها.

-أوف، أوف... حظي العاثر دائما هو هكذا، أكبر عدو لي... ماذا فعلت لأستحق هذا؟ لم أنوِ سوى الخير... (دير الخير ما يطرا باس).

تقول هذا وذاك في محاولة بائسة لتدارك الأمر. فالإنسان يعيش خطابات داخلية تبرر الفعل كأنه استنطاق داخلي، لك الحق في التحدث كما في الصمت، هنا يكون التحدث رغبتك، تبحث عن الوصول لشيء ما وتعود لتستنكر ثم تستدرك قائلا: ما الداعي لكل هذا؟

خديجة بدأت تترك حالها هذا، وتخطط لما هو قادم. فقد خيل لها لبرهة أن القطار سيتوقف في محطة الدار البيضاء الميناء، والتي ستصل لها بعد دقائق قليلة. ستهبط منتظرة القطار العائد إلى محطة المسافرين، فالأمر لن يتطلب منها سوى نصف ساعة كأقل تقدير، وهكذا تكون بخير، تسلم المحفظة لإدارة القطار، وتعود مؤدية عملها، وربما تطلب باقي ساعات اليوم راحة تسترد ما سلب من طاقة إيجابية، تلتقط الأنفاس الإيجابية، وترمي السلبية في كيس القمامة.

-ألا تسمع يا رجل! مخافة ألا يفوتني القطار، قلت مع نفسي أن أنتظر إلى حين صعودي القطار، وآخذ التذكرة من حضرتكم. هل أبدو لك من أولئك الصبية المتملصين من اقتناء التذاكر؟

جذب خديجة وفي خضم ما يكون أشبه بنقاش نفسي داخلي تعيشه، صوت نسوي عنيف، امرأة تحاول أن تكون أكثر صراخا في لهجتها ليتبين أن الحق معها. اكترثت فاستدارت تستعلم ما الواقع مع المرأة. كانت السيدة وهي تبدو في الأربعينات من عمرها تصرخ وتستبيح لنفسها رفع صوتها أكثر من اللازم- النساء في هذا السن يصبحن بركانا هائجا- قد صعدت للقطار دون اقتناء تذكرة، والطرف الثاني مراقب التذاكر، في أثناء جولته المعتادة على الركاب، كان قد اصطدم بالمرأة القوية المتشبثة برأيها، والتي تدعي أن الوقت خانها، وهو ما جعلها تقرر الحصول على التذكرة من داخل القطار. تصلب وجه المراقب، وتدفقت شرارة الغضب من عينه، وثار من شدة ما حاول أن يفهّمها أن الأمور بخير، وأن لا داعي للأصوات المرتفعة:

-أيتها السيدة... لقد كان أسلوبي لبقا! به احترام، وأسئلتي استطلاعية لا غير، وأنت ماذا كان ردك؟ وكأننا وجهنا لك تهمة قتل... تعلمين وأننا رغم الأوامر التي تعطى، فإننا وبكل سعة صدر نتجاوز تلك الأوامر متساهلين مع الناس.

قال هذا وتجاوزها مكملا عمله.

-ها... (حتى الواحد كيقصح معاكم الهضرة).

التفتت السيدة توجه له هذه الكلمات. وبمجرد أن استدارت، صارت تحدق في تعابير الناس الواقعة في مرمى نظراتها، وتتفحص التذكرة من كلا الجانبين، ثم انتبهت للباقي من المال، فالمراقب أرجع لها الباقي وهي منهمكة في الصراخ، فخيل لها في لحظة أن الباقي تنقصه بعض الدراهم، لكنها عادت تدقق الحساب، لتجد أن الباقي لا شيء ينقصه، سوى أن يعود لمحفظتها الصغيرة المعصورة تحت قبضتها المتماسكة جراء عصبيتها المفرطة.

ظلت خديجة تراقب الوضع وما آل إليه. كانت قد انجرت للأحداث متناسية وضعها الحالي وعاكفة على صمتها الراهن. ولم تكد تمضي دقيقتان على الحدث حتى جاءت أصوات أخرى إلى مسامعها، كان هناك زوجان يتكلمان بصوت خافت بدأ يتصاعد مع حرارة الحديث، حتى صار واضح المعاني لمن في الجوار. قال الرجل لزوجته بلهجة سخاء:

-ماذا تطلبين يا امرأة؟ ممم... سندويشا بالدجاج أم الكفتة.

-لا! لا! لا أحب أطعمتهم البائتة، كما أن أثمنتها غالية... أفضل إحضار الطعام من المنزل. حقا لا أريد.

-أضحكتني... حسنا، أين هذا الطعام الذي جلبته من المنزل؟ إني لا أرى سوى كلام متعنت يدافع عن فكرته وسط الجوع.

أخذ الزوج ينادي لبائع الأطعمة، والزوجة غارقة في حصر الأسباب، ترفض الخروج من معركتها خاسرة، فأحيانا يخيل لهن وهن على باب موضوع صغير أنه ذو حاجز فولاذي قد يستقوي بباب آخر خلفه.

وكأول إجراء في قانون البيع والشراء، راح الزوج يسأل عن الثمن، إلى أن انتهى به المطاف يقتني سندويشا له ولزوجته مع قنينتي ماء صغيرتي الحجم. وبمجرد استلامها السندويش، شرعت تأكل بتلذذ واضح.

خاطبها الزوج ضاحكا:

-إنه الجوع يا امرأة، الجوع يدع المرء يأكل كل شيء.

قال هذا وهو يزيح الغطاء عن السندويش استعداد للأكل ثم تابع:

-إن الجوع ليدعك تتخلى عن أفكارك وخطاباتك ومبادئك. ها أنت ذي سقطت أمام أول فرصة أتتك لتكبحي صراخ الجوع داخلك. ربما هذا ما يفسر ضعف البعض، رغم داخله الثوري المتشبع بأنبل الشجاعات في مجابهة هذا العالم المتسلط المستبد.

وعاد ينظر لزوجته مردفا:

-لكن هذا لا ينكر لذة طعام زوجتي... على كل حال... (ناكلو و مولاها ربي).

اتفقـت خديجـة مـع كلام الـزوج، فالجـوع عـدو للإنسـان، يجعلـه ينـسى مـن هـو. فالمهـرج يتخـد خطـوات التهريـج ويضحـك النـاس فيـه، ويسـخر من نفسـه في جـو مـرح للمتفـرج طلبـا في مـال يسـد بـه الجـوع. كذلـك المتسـول يقـف في قارعـة الطريـق بوجـه مكشـوف وكأنـه ممثـل، وكأن الحـال يوهمـه أنـه يتقمـص قناعـا، ويـده اعترهـا العيـاء مـن شـدة مدهـا للاسـتعطاف، كل هـذا في سـبيل مـال يسـد بـه الجـوع. فحينـما يتعلـق الأمـر بإسـكات أصـوات بطوننـا مـن الجـوع، فإننـا نضطـر إلى إسـكات ضمائرنـا مـن أي انتفـاض عـلى قباحـة التـصرف، يصبـح كل شيء مباحـا، متناسـين أن هنـاك شريعـة سـماوية وقوانـين وضعيـة نحـن ملزمـون بالتقيـد بهـا.

إنهـن نسـاء يقاسـين وسـط حيـاة مرهقـة كليلـة لا تمنـح حتـى أبسـط ظـروف الراحـة، لا يوجـد حتـى مـن يمـد لهـن يـد المسـاعدة إلا مـن رحـم ربي، وأب الابنـة يسـتوطن عـالم النكـران، لا يفكـر في ابنتـه، بـل راح يتـزوج منجبـا آخريـن متناسـيا أن ابنتـه تحتـاج لأبسـط المطالـب. إني لا أدري بـأي فكـر يمشي هـؤلاء في حياتهـم، ماضـين غـير متردديـن في حجـب أبنـاء مـن صلبهـم عـن مفكرتهـم اللعينـة.

ردت خديجـة وقـد أزاحـت يدهـا عـن موضـع قلبهـا، وعـاد نبضهـا لطبيعتـه دون زوال توتـر بـدا ظاهـرا عليهـا:

-لا تؤاخذيني! فإني متوثرة الخاطر ومبعثرة الأفكار.

-مـاذا هنـاك؟ أنـا منـذ البدايـة أحسسـت بـشيء سيء حـدث معـك...) شـنو واقـع أصاحبتـي(؟

-إني واقعـة في مشـكل... الحقيقـة ربمـا لا يبـدو مشـكلا في نظـرك، لكـن... (قلبـي ممريحنيـش والله).

كذلـك تكلمـت خديجـة، وفي عينهـا تعجـل في مصارحـة صديقتهـا بالمشـكل، لعلهـا تجـد حـلا أو كأقـل تقديـر تريحهـا بكلـمات مـا. تلـك الأوهـام التـي نجـبر بهـا خاطرنـا في مسـعى لوقـف تدفـق الأصـوات الخانقـة السـاعية لإقناعنـا بنهايـة داجنـة.

لقد حكت ما عاشته في هذه المدة المنصرمة، والتي انقضت بما لا يسر خاطر عاملة بسيطة جل ما تسعاه تأدية واجبها والعودة إلى جدتها بقفة لوازم احتياجية، وما تبعه من أحاسيس سيئة جعلتها تكره هذا اليوم دون انتظار حلول الليل حتى يكون حكمها عادلا، إلا أنها سرعان ما قوبلت بالتهكم والسخرية من صديقتها، التي أكدت لها وهي تسخر من خوفها أن الأمر عادي، غيابها هذا لن يسبب لها أي مشكل، وأن الأمر لا يرقى لأن تملأ به ذهنها.

قالت تمازحها وهي تلمس الحقيبة بيدها اليمنى، فتعود لسحبها بسرعة متناسية أنها تضع قفازات من شأنها ترك بعض الأوساخ:

-هل هي ممتلئة بالمال؟ لعلنا نسعد في أيامنا التعيسة هذه ولو قليلا... (نمشيو غير نفوجو في جزر المالديف... قولي ليا طلبيها غير صغيره...).

-نعم يا سيدتي... (فين بغيتي تمشي؟ غير تشهاي ليا وأنا معاك... في راسك راه ثقيله بالفلوس...)

سارت خديجة على نهج صديقتها في المزاح. تحاول خلق جو قد ينسيها ما هي فيه. تابعت تقول:

- لا تقلقي، فأنا أعرف حظي... (كاع هذا زهر عندي نلقاها عامره بالفلوس... غير حلمي أبنتي...)

ردت صديقتها وهي تكاد تنفجر ضحكا:

-تذكرت يوم وجدنا أثناء سيرنا في حي ال... ورقة نقدية من فئة مئتي درهم، كانت تلمع من شدة زرقتها، فالتقطتها على وجه السرعة، إلى أن استوقفك أحدهم... كان يبدو كأولئك اللصوص الذين يصطادون ممتلكات الناس على دراجاتهم النارية...

-نعم، وقد قال أنها ملكه... (عصبني داك النهار! ولا يقول ليا ديالي، طاحت لي...)

-لكنك كنت بألف رجل، حين طردته وأقنعته بالرحيل فقلت: (سير

بحالـك... شـوف أنـا غـادي نديهـا دبـا لكوميسـاريه، هـما اشـوف ديالمـن... صـافي تهنيتـي دبـا)

قاطعتها صديقتها وهي ما تزال تضحك:

-فقـال لـك: «حسـنا! دعينـا نقتسـمها... سنقسـمها إلى نصفـين... لا، فقـط أعطينـي خمسـين درهـما، ذلـك يكفيني».

-نعـم، لقـد كشـف نفسـه، وتحـول مـن شـخص يطالـب بهـا إلى شـخص يريـد منهـا فقـط خمسـين درهـما... (قاليـك يـا لالـه: واللـه يـا أختـي مـزال مكاميـش مـن الصبـاح، غـير شـوفي كفـاش ديـري).

كانـت ذكريـات مضحكـة، بتذكـير مـن صديقتهـا، قـد قدّمـت لهـا ذاك الهـدوء الغائـب، وتبـدّد الخـوف والقلـق في ثـوان لم تسـتطع فيهـا إلا فـرض اهتمامهـا عـلى مـا هدأهـا. أتسـاءل أحيانـا: لمـاذا لا نسـتطيع إراحـة أنفسـنا وسـط آلامنـا وقلقنـا بتلـك الذكريـات الجميلـة، المضحكـة، المخبـأة في أعماقنـا، منتظريـن مـن الغـير أن يقـوم بذلـك؟ أهـي بـذاك العمـق الـذي يصعـب علينـا سـحبها وجرهـا إلى السـطح؟ أم أنـه ليـس لنـا سـلطة عـلى ذواتنـا؟ لكـن مـا أقولـه: لسـت متأكـدا أن الـكل قـادر عـلى اسـتحضار هـذه الذكريـات.

نسـتطيع القـول الآن أنهـا مـدت يدهـا للحظـة، وراحـت تتحسـس شـكل الراحـة والهـدوء كيـف هـما. الجميـل في الأمـر أنـه كلـما غابـت عنـك الأحاسـيس والأجـواء الجميلـة، عـدت لعيشـها في صـورة متجـددة، كأنـك تعيشـها أول مـرة. إضافـة لهـذا، ومـا زادهـا راحـة، هـو كـون صديقتهـا تعمـل في هـذا المجـال قرابـة الأربـع سـنوات، مـما عـزز الاعتقـاد الـذي آمنـت بـه الآن داخلهـا.

هـا قـد وصـل القطـار لمحطـة الميـنـاء. تأمـل خديجـة أمـل المحتاجـة لـضرورة الأمـر أن يكـون هنـاك قطـار ينتظرهـا عـلى السـكة المقابلـة، ينقلهـا عـلى وجـه السرعـة لمحطـة المسـافرين، دون أن يطـول انتظارهـا عـلى جنبـات السـكك، ويـا للصدفـة! كان هـذا أول شيء أحسـت حقـا أنـه بجانبهـا، أن الحـظ بـدأ يطـوف قربهـا، جـاء القطـار لتـوه يصـدح صدحـه المعتـاد.

-الآن سأدعك، نلتقي... (بسلامة الخايبة، نتلقاو).

-نلتقي...)غير مطوليش علينا الغيبة(!

هكذا ودعتا بعضهما البعض، وهبطت كل واحدة في سبيل أمرها.

انطلقـت خديجـة نحـو السـكة الأخـرى. تعلوهـا ابتسـامة مشرقـة مـن تبعـات لقـاء جـاء صدفـة مـع رفيقتهـا كقطـرة مـاء في حلـق ظامـئ وهـي التـي ظمئـت لحالهـا الهـادئ مـع مكنسـتها. لقـد صـارت منشرحـة الصـدر، لململمت ما بعـثر بداخلهـا، قـد اقتنـع داخلهـا أن الأمـر بخـير، ليـس هنـاك داع لأيـة ذرة قلـق.

وإلى وجهتهـا، قـد أخـذت ترسـم مشـهدا اسـتباقيا لمـا سـيحصل، إنـه كالآتي: سـتهبط مـن القطـار، وتتوجـه نحـو إدارة المحطـة لتسـلم المحفظـة، ويـا للصدفـة! سـتجد في طريقهـا رجـل الأعـمال جالسـا جلـوس المترقـب، يواصـل ضرب قدمـه اليمنـى بخفـة عـلى الأرض ويـداه متشـابكتان إلى الأمـام، ومرفقـاه مسـندان عـلى ركبتيـه، يشـعر بـالأسى حيـال مـا وقـع، هفـوة منـه ضاعـت الحقيبـة، ولأهميـة مـا فيهـا، انتفـض داخلـه تأنيبـا... تتقـدم خديجـة وبيدهـا الحقيبـة، تخاطبـه بـكل ارتيـاح، تعلوهـا ابتسـامة انتصـار، وكأنهـا للتـو خرجـت مـن معركـة منتـصرة آبهـة للخـاسر ومنتعشـة بالانتصـار، فيقـوم هـو الجالـس برفـع رأسـه مـع ابتسـامة تدرّجيـة، يضـم فـرج اللـه القـادم، ويفتـح بـاب اللحظـة لطـرد الأسـف وأعوانـه، ويشـكر خديجـة لمـا قامـت بـه، ثـم يحثهـا عـلى ذكـر مقابـل لصنيعهـا، فترفـض وبشـكل قاطـع الأمـر.

المحامي

أضحى يوم الرجل صعبا مقيد الخطى، وبات على شفير وادي اليأس، يتمايل حتى يعطي نفسه حق الإيمان أن الأمر زائل كما زال غيره من الأوقات الصعاب، وما لوقع الحوادث على نفس الإنسان مهما بلغه من جلَد، فها هو يلوم نفسه بكافة العبارات التي دقت فكره دون أن يوقفها إلى أن تتوقف بنفسها (يعتقد أنه يستحق).

إن ما في الحقيبة يعني له الكثير، ولا يقبل خسارته، فهذا يمس بصورته وسط عمله المجهول الذي لم يفصح عنه بعد. والآن يجوب أروقة المحطة، ويعود إلى المكان الذي ترك فيه الحقيبة. لقد أخذ الاستسلام يظهر في خطواته التفتيشية التأملية هذه، إلى أن قرر الذهاب أخيرا لمكتب الإدارة بنية التبليغ عن ضياع حقيبته.

اتجه مسرعا منكسر الخطى، يجر وراءه نظرة حسرة كم كانت ثقيلة وازنة. آمن أن لا يدخل حالة خيبة كبيرة حتى يتيقن الأمر لآخره. لم ينو استعمال كلمة «سرقة» في الموضوع. كما أنه اعتقد اعتقاد العاقل الناضج أن الحاصل خطؤه، وإن سميت سرقة، فهي ليست مباشرة، بل هو استهتار من مالكها، وكأن الأمر أشبه بالتخلي عنها، فلا يمكن لوم آخذها بأي تهمة من التهم.

-تقول إنك تركتها عند المقعد... وكيف هو شكل هذه الحقيبة؟

كان هذا مدير المحطة قد باشر أسئلته الروتينية، في محاولة منه التقرب من الصورة أكثر، وهو ما ينم عن جديّته في التعامل مع شكايات الناس، وإن كان غير هذا، غير الذي جئنا بذكره، فإنه على الأقل يقوم

بالإجراءات الاعتيادية الموضوعة في سبيل الاهتمام الذي يحتاجه المسافر، حتى يتقبل الأمر لما بعد التحقيق إذا لم يجد ما له.

تابع يقول:

-أنت تفهم يا أستاذ، المئات من الناس تستقل القطارات في وجهات متعددة، فضياع شيء هنا يكون كضياع إبرة في كومة قش. هذه هي محطات القطار.

تنهد في نصف وقفة من الكرسي كي يجدد جلسته، وأردف بسؤال:

-أيمكنني أن أسأل عن مهنتك، ها؟

أخرج الرجل بطاقة سوداء سميكة الأطراف عليها بعض الخطوط والكتابات، وقدمها لمدير المحطة قائلا:

-الأستاذ فؤاد الـ... محامي بهيئة الدار البيضاء.

-آه! الأستاذ فؤاد الـ... عندنا. قد سبق لي السماع باسمك وإنجازاتك. إنه ليوم كبير يا أستاذ.

قابله المحامي فؤاد بتحريك رأسه كشيء من الشكر والإطراء على كلماته.

اتضح إذن وللكل غير خديجة المسكينة التي ما زالت تحسب الدقائق للوصول، أن رجل الأعمال هو محام معروف بهيئة الدار البيضاء. اسمه معروف لدى الكثير من الساكنة، خاصة ذوي الطبقة السياسية ورجال الأعمال، وحتى الطبقة المعوزة.

كان قد اكتسب شهرته من القضايا التي دافع عنها، إذ أنه لم يخسر أي قضية، وما ميزه عن غيره من المحامين أن باب مكتبه مفتوح للجميع، لا يقتصر دفاعه عن الأغنياء ساعيا وراء المال، بل حتى أولئك الضعفاء من الطبقة الكادحة.

ولعل ما يعاب عنه هو دفاعه الكثير عن المدعى عليهم. إنه إنما يجسد بهذا قاعدته التي يؤمن بها: «إن الخطأ طبيعة إنسانية تقود المخطئ نحو الصحيح، لذا فهو يحتاج فرصة أخرى، يصحح خطأه

المنحط قبل أن يرحل دون هذا التصحيح». يدافع عنهم، ليس سعيا نحو البراءة، بل طلبا في تخفيض العقوبة، حتى يتسنى لهذا الشخص التكفير عن ذنوبه بإصلاح مادي لا إصلاح روحي فقط. لكنه في مقابل هذا، يتعهد مكرر الخطإ أنه ذو حرص شديد على عقوبة أشد إن أبى التوبة، تطاله ودون تردد.

يملك مكتبه الواقع في حي... المكون من ثلة من المحامين الشباب الممتازين. تلقوا تدريبهم على يده. فقد بدأ كغيره من المحامين بمكتب صغير بمدينته الصغيرة -المحمدية- يتربص بالقضايا الكبيرة التي لها زخم في الوسط العام، مؤمنا أن هذا سيقوده إلى حلمه بتأسيس مكتب كبير من المحامين، يعملون لديه، يحققون مبدأه، يدافعون عن توجهاته.

إن كل من عرفه دون هويته الضاربة في بقاع المدينة، خيل له أن الواقف أمامه رجل أعمال من شدة أناقته التي تشبه رجال الأعمال الإيطاليين. هذا الأمر راجع لطفولته القريبة شيئا ما من القساوة، حين كان يعاهد نفسه في لحظة حرمان: «لا شيء سيقف أمام أحلامي، سأشتري ما أريد، وألبس ما أريد...».

قد نقول أن الإنسان في ظروف مماثلة يعوض ما فاته في الماضي البائس، ملغيا قاعدة «لكل شيء وقته». ولكي لا ننسى كرمه مع الضعفاء، فمن شدة ما كان متشوّقا لفعل الأعمال الخيرية كما فعل الكبار في وقت صغره وضعفه، صار يوزع المبالغ الضخمة التي يتقاضاها من فاحشي الثراء نظير قضايا ربحها على من يعرفهم من المساكين، حتى يتبقى ما يقنعه أن الباقي راتبه الحقيقي، فهو دائما ما يردد القول التالي إلى حد المضي في تنفيذه: «لا يهم المال المحصل عليه ولا طريقة الحصول عليه، المهم أني آخذ مالا كان سيذهب لغيري، دون أن يبدي هذا الغير أدنى خطوات التضامن مع المساكين كما أفعل».

كان الحديث مستمرا، ولقد امتد لأشياء أخرى خارج الموضوع الأصلي من طرف أحادي غاص فيه المدير بأنانية ومصلحة ظاهرة، إلى

أن رن هاتـف المحامـي، هـو اتصال مـن زوجتـه. أخـذ سريعـا يسـتأذن الـرد:
-أجل...
-أنـت لم تنـس الأولاد يـا فـؤاد، السـاعة الثانيـة عـشر... كـما تعلـم، أنـا اليـوم غـير متفرغـة للأمـر، لـدي قضيـة مهمـة.
-حسنا، أنا مشغول بعض الشيء...
أغلـق الهاتـف عـلى زوجتـه. وهـي لم تعـاود الاتصـال. ربمـا هـي عـادة منـه اعتـادت عليهـا، وربمـا منشـغلة اللحظـة بمـا لا يسـمح لهـا بـكلام كثـير.
مـما يسـتحق الذكـر أنهـا محاميـة بمكتبـه منذ أول يـوم افتتحه. نسـتطيع القـول أنهـا كانـت القطعـة الأخـيرة للجـسر الـذي قـاده لحلمـه. تلـك الزوجـة الغنيـة التـي ورثـت ثـروة ضخمـة مـن أبيهـا، والـذي اعتـبر أن فـؤاد هـو الزوج المثـالي لابنتـه. لـه منهـا ابنـان كلاهـما يـدرس في المرحلـة الإعداديـة، توّاقـان أن يسـيرا عـلى نهـج أبويهـما لمـا يعيشـانه مـن طاقـة إيجابيـة في المنـزل.
صاح المدير ينادي أقرب الموظفين له بلهجة حازمة:
-أحضر لي با إبراهيم وجواد في الحال.
ثم استدار يكلم المحامي رشيد بلهجة ساخرة دنيئة:
-هـذان الشـخصان، حقـا! إنهـما لا يتوقفـان عـن الحركـة... ينـادى عليهما عـين الصقـر. إنهـما... (سـلعة قديمـة ولكـن باقين شـادين في روسـهم).
ظهـرت عـلى المحامـي بسـمة المسـاير الرافـض للنعـت الـذي قيـل في حق العاملـين، مـا لبثـت تظهـر حتـى تختفـي وسـط شـعور غـير مؤيـد سريعـا مـا يعكـس سريـرة الإنسـان، دافعـا إياهـا للطفـو عـلى الأسـارير في مـرأى مـن الملاحـظ.
قـد يصعـب عـلى مـن هـم في مكانتـه أن يتنـازل عـن رفعتـه ويعامـل ذاك العامـل بمـا يليـق بـه كإنسـان أولا ثـم كأخ وصديـق، ومـا أقصـده هنـا هـو الجانـب النفـسي للعامـل، والـذي قـد يـداس عليـه ظانـين أن الجانـب البـدني هـو المـرام احترامـه مـن تقليـل عـدد سـاعات العمـل ومـا إلى ذلـك مـن أيـام العطـل، في حـين أن الكلمـة العنيفـة قـد تكـون أقـسى.

قد غاب الاحترام تجاه العمال، واختفت تلك الرسمية في الحديث، ليس إلا ذاك الكلام اللبق الخادع تجاه من هم أرفع من مستواه. هذا هو الإنسان، يمتلك السلطة كسكين يغرسه في من هم أضعف منه كجبان حالم بقوة ثعبان ينقض بخبث على كرامة وشرف المرء، يتلذذ، مواصلا إهاناته الحقيرة، في سعي منه لإظهار حاله الضعيفة تلك.

حضر با إبراهيم ومن معه، يترقبان خطابات المدير المعتادة، مفرداتها تجعلك تنقبض منها غير راض عن بدايتها ولا نهايتها، حتى أن المحامي فؤاد لاحظ ارتسامها على محياهما، فأخذه الحال إلى أن يتمنى فقط إسراع الأمر مبتعدا عن أجواء كهذه. فقرر أن يكون مفتتحا للأمر، يسألهما، كإعفاء لهما مما هو قادم.

قال وقد أبعد ظهره عن الجزء العلوي للكرسي متكئا نحو الأمام، ضاما يديه بشكل ملتحم:

-يا سادة، الأمر وما فيه، أن حقيبة تعود لي قد ضاعت في السكة الثالثة، تحديدا في المقعد الأقرب للدرج الكهربائي. نسيتها بجانب المقعد على الجهة اليمنى... أنا أعترف أني المخطئ في الأمر، ما كان يجب علي نسيانها... إنه البال، وكثرة المشاغل...

نظر إليه المدير بنظرة استغراب للأمر، تفيد أنه غير راض على التصرف الاستعجالي الصادر من المحامي، الذي أكمل يقول:

-الأهم الآن وكما قال لي السيد المدير، أنه لا شيء يفوتكما من أحداث هنا، يمكن أن تفيدنا المعلومات التي لديكما، فربما قد تكونان رأيتما شيئا بخصوص هذا.

عاد شيء من الاعتبار للمدير بعد أن جاء على ذكر اسمه، حتى أنه بدأ يحرك رأسه على حقيقة ما قيل أثناء الكلام. فقام يوجه سؤاله للعاملين:

-با إبراهيم، هل لديك فكرة عن الأمر؟ وأنت... (يخاطب العامل الآخر)، الأستاذ فؤاد يصر على أهمية ما في الحقيبة... أنت با إبراهيم

كثير التنقل بين السكك، ألم ترَ الحقيبة إن هي سرقت من طرف أحدهم؟

رد با إبراهيم وهو يسعل في محاولة منه لاستعادة صوته الذي تعب وبان مبحوح المخارج:

-لا يا سيدي... لم أر شيئا يخص محفظة السيد، لكن دعني أسأل عاملات التنظيف (وقعت بباله خديجة مع العاملات الأخريات) ربما! ربما يكون لديهن علم بالحقيبة.

تمتم العامل الآخر بريبة واضحة، فانتبه له المحامي وقد صار يتآكله الفضول باهتمام بالغ، فخاطبه يقول:

-نعم !أقلت شيئا أيها الصديق...

-جواد سيدي، ذلك اسمي.

تابع الكلام بسرعة. أحس أنها لحظته في الكلام. عزم أن يتكلم، أن يشارك في الحوار، فغالبا حينما يمنح العمال حق التكلم يقدرون الموقف، ويعظمون كل كلمة تخرج من فمهم، ترفعهم مكانة وتقديرا. إنه الحرمان والقمع مع الكبح والإحساس بالدونية. وقد كان رجلا ضخم الجثة عريض المنكبين، أسمر البشرة. قال متحمس النبرة:

-سؤال يا أستاذ: ما الساعة التي ابتليت فيها بهذا المشكل؟

ضحك المحامي وقال:

-أجل! أجل! أصبت، هو ابتلاء... أعتقد أنها كانت الساعة العاشرة أو العاشرة والنصف.

عزم على الرد سريعا، إنها لحظته، فالكل يتابع باهتمام ما سيقوله، لكن المدير أبى إلا أن يتكلم، قد أحس أنه ملزم بمنح حق الكلام للعامل، حتى يحس أنه مسير هذا الاجتماع، فقال على غير عادة يضحك:

-حسنا هات ما لديك، وأبشرنا، أبشرنا حتى نبشر الأستاذ. آه، كم تمنيت لو أننا التقينا في ظروف أفضل...

طأطأ المحامي رأسه مع ابتسامة صغيرة استدارت مع استدارته إلى

حيث العامل ينتظر صمت الجميع حتى يتكلم ليضفي على نفسه قيمة وشأنا، وها هو شرع يقول:

-الحقيقة ولا أعلم إن كنت مصيبا في الأمر، فأنا كنت منشغلا لحظتها، مقسما تركيزي، غير أني، وفي لحظة تجولي المعتاد... رأيت عاملة نظافة في السكة الثالثة، كانت تحمل بيدها حقيبة بنية اللون على الساعة التي ذكرتها يا أستاذ. كانت تنطلق نحو القطار وكأنها تبحث عن أحدهم، أو شيئا من هذا القبيل. همت بالصعود للقطار، وقد شاهدتها ترحل... ربما هي حقيبتك سيدي...

لم يحرك با إبراهيم ساكنا، لأنه لم يسمع اسم خديجة ينطق، لكن بمجرد أن سمع السكة الثالثة وما جاء على ذكره العامل جواد، اهتز توازنه وغاص في حيرة وتذبذب، وتبدد الهدوء الذي كان ينتشله من غارات التعب.

صاح المدير يخاطب با براهيم باستفزاز:

-أليست تلك البنت التي أحضرتها يا با إبراهيم للعمل. ماذا عساك تقول في الأمر؟

كان با إبراهيم متحجر الحركة، لم يستسغ بعد الواقعة، قد تحير في الرد، ولم ينطق بكلمة واحدة لحظتها.

أخذ المحامي الكلمة بتساؤل واستغراب يقول:

-كانت هناك سيدة تنظف في السكة الثالثة... أهي من تقصد؟

-أجل سيدي، خديجة، تلك المرأة البيضاء.

-إنها خديجة ابنة حي... اشتغلت قرابة الثلاثة أشهر.

ذكر المدير مقر سكناها، كأنه يقول: انظروا من أي حي قادمة تدركون الذي جرى، حتى أنه جاء على ذكر سلبيات الحي وأمثاله من الأحياء الشعبية، متناسيا أخلاق السيدة واستقامتها في العمل. فما إن يقع الشخص في دائرة الاشتباه، حتى يؤتى ذكر الجانب السيء، ويرمى الجانب الحسن الخيّر في سلة النسيان، ويا لوضاعة الأمر وقساوته على الشخص.

ثم صار يردد بصوت جازم:
-سارقة، سرقت الحقيبة. تظن أنها ممتلئة بالمال.
أطلق المدير جامّ فظاظته في حكم مسبق مقدّم الجلافة واتهم خديجة بالسرقة لما ظنته من مال موجود في الحقيبة. وهذا الصمت الذي فيه با إبراهيم جعله لا يحرك شفتيه بكلمة، دفاعا عن البنت، تدرك أنه ما زال بعد يفكر في الأمر، يقاوم الواقعة بذكريات الاثنين خارج أسوار هذه المحطة البيضاء التي لطخت ها هنا الآن بغبار رمادي باسم مكنسة خديجة، أنا الذي لطختها، وكأنني أعيد كل الغبار الذي كنسته خديجة في سبيل نظافة المحطة، حتى نرى كم أصبح عليه المشهد. فاختبئي يا مكنسة أو نامي...
أبدى المحامي فؤاد شيئا من الريبة من الأمر. أصر على أن يتأنى كعاقل في إطلاق حكم مسبق. لزم موقعه كباحث عن الحقيبة لا يرغب في التحول إلى مدع، فتجربته المهنية جعلته هكذا، لا يصدر أحكاما مسبقة. فقام من مكانه يمشي خطوات قصيرة تجاه باب المكتب، ليقول بعزم تام منفتح البصيرة الكلمتين التاليتين:
-لننتظر مجيئها.
ضحك المدير مستفزا البعض من جديد:
-ومن قال لك أنها ستعود، ربما لن تعود... أكيد أنها الآن في مكان ما تنتشي بهروبها الماكر مع حقيبة تظن أنها مليئة بالمال... أجل، وربما تحتفل في سر وسط الناس...
-إذن سأزورها بنفسي. أيمكنك تسليمي العنوان؟
كذلك رد عليه المحامي.
-عنوان؟ دعني أتصل بالشرطة تتكفل بالأمر.
-الأمر لا يستدعي تبليغ الشرطة! كما أننا لسنا متأكدين من الأمر. نحن نحتاج فقط سماع ما لديها. أرجوك سيدي، لننتظر بعض الوقت.
توتر الجو، ووصل الأمر ببعضهم إلى صعوبة في التنفس، فما عادوا

يحتملـون المـكان. كان بـا إبراهيـم أحدهـم. أخـيرا قـرر الرجـل التكلـم، يـود الخـروج مـن هـذا الشـعور.

أخذ يوزع الكلام في اتجاهَي المدير والمحامي قائلا:

-لا يـا سـيدي! أكيـد أن هنـاك خطـأ، يسـتحيل أن تقـدم عـلى أمـر كهـذا، فعهـدي بهـا أنهـا ذات أمانـة ووفـاء، لا تقـرب مـا ليـس لهـا... ربمـا كان جـواد مخطئـا في التقديـر، أو ربمـا كانـت تبحـث عـن صاحبهـا بـين الـركاب... أجـل، أجـل، أكيـد أنـه سـوء تفاهـم... ربمـا الأمـر اتضح الآن.

-لا، لا! توقـف عـن قولـك كلامـا تافهـا، فنحـن جميعـا نعلـم مـن أيـن أنتـم قادمـون... لا أريـد سـماع الترهـات الفارغـة، يكفـي مـا وقـع. أنـت تقـول كابنتـي! و اللـه لـو كانـت ابنتـك الحقيقيـة مـا منعهـا هـذا مـن الفـرار بحقيبـة وحيـدة بجانـب مقعـد، ظانـة أنهـا ممتلئـة بالمـال... انتظـر، أنـا أعلـم أنـك مخلـص لعملـك ومبادئـك التـي لـن يشـك بهـا أي أحـد هنـا، لكـن الواقـع يقـول أنهـا أذنبـت. لـذا رجـاء، توقـف عـن تضليـل الحضـور بالأعـذار.

هكـذا تكلـم المديـر وهـو يـصرخ في وجـه بـا ابراهيـم، وقـد بـدا مـن خـلال أسـلوبه القـاسي، والـذي بلـغ وقاحـة كبـيرة في كل مـا يصـدره، أنـه شـخصَن الأمـر، قـد صـار يعنـي لـه كمشـكل شـخصي، فمـدة عملـه البالغـة فقـط سـبعة أشـهر عـلى المحـك، وهـو لا يريـد تـرك بصمـة سـيئة في بدايـة مشـواره الإداري خاصـة أمـام شـخص بمكانـة المحامـي فـؤاد. فـما كان منـه إلا أن يهاجـم هنـا وهنـا حتـى يظهـر بالوجـه الجـدي المسـؤول بحـزم.

قـام بعدهـا يخـرج مـن المكتـب مسـتأذنا المحامـي فـؤاد، مناديـا العامـل جـواد أن يلحـق بـه.

وتجدد اللقاء

كانت خديجة، وهي تستقل القطار القادم والمار من محطة الدار البيضاء المسافرين، لا تعلم ما الواقع آنذاك، كيف جعلت نفسها موضوع نقاش حاد تختلط فيه جميع المشاعر من أرقاها إلى أدناها. فالقلق والخوف اللذان امتلكاها أتعباها... كانت المسكينة تنتظر بفارغ الصبر أن تسلم الأمانة لصاحبها وتعود لدوامها اليومي، لكن القدر، وفي خفاء يحضر لها شيئا لم يخطر ببالها مهما اسودت سماء بالها، وتطايرت أسراب التشاؤم، وهو أن تتهم بالسرقة، و يصل الأمر للشرطة و الحبس...

وها هو القطار وصل الآن للمحطة، ومع انفتاح بابه وهبوط خديجة كأول شخص من شدة ما تسمرت بجانب الباب، بدأ قلبها يخفق بتسارع دون سابق إنذار، كما يفرض الحال القائم على صاحبه. تتقدم بخطوات متسارعة وكأنها تجاري دقات القلب المتسارعة مع خاطر متحمس للقادم، وهي تتجاوز مَن أمامها بكل وقار. تواصل التقدم نحو مكتب الإدارة. تواقة لتسليم الأمانة لمالكها، لكنها لا تدري ما الحاصل هناك، ربما ما منعها من ذاك الإحساس الاستباقي الذي ينبعث بداخل المرء، ينذره أن أمرا ما سيحصل لم يحضر، ربما هذا بسبب المكان الذي يعم ضجيجا وصياحا، حاملا معه كل أشكال المشاعر، مشوشا على الأمر برمته.

إن المكتب صار يعمه هدوء وتفكير مطول في الحاصل للفسحة التي منحها غياب المدير، إنهم يحتاجون إلى ترتيب أفكارهم، حتى أن المحامي فؤاد أصبح يفكر تفكيرا مطولا في التضخيم الذي صنعه المدير للأمر، رأى كم أن الأمر صار مغيضا غير مريح بالمرة.

كسر با إبراهيم الصمت أخيرا، يخاطب المحامي بلهجة تنمّ عن تحسر ظهر أكثر مع جلوسه القرفصاء. متكئا على الحائط، وجهه للأعلى، ويداه تكادان تتشابكان كرجل مكبل اليدين:

-أنت تعلم يا سيدي، أن هذا المدير يبالغ في رد الفعل، فابنتي خديجة لن تقدم على أمر كهذا، متأكد من أنها ما كانت لتفكر في الأمر، فيكف تقْدم على فعل كهذا.

-ماذا تعرف عن خديجة هذه؟

سؤال واضح الطوايا من المحامي، يظهر نيته في معرفة الكثير عنها.

أجاب با إبراهيم، وقد جلس بالكامل في الأرض متخليا عن جلسته تلك، والأسى يعتصره:

-خديجة، هي ابنة صديقي، ابنة عمارتي و دربي. أعرفها منذ أتت لهذه الحياة، لنقل أني شاركت والديها في تربيتها، فقد كان لي نصيب من تربيتها. الجميع هنا يا سيدي ودون نية مجاملة، سيشهد لك بخلق المرأة وتفانيها في العمل والإخلاص، أجل، الإخلاص الذي أدار له البعض ظهورهم! كهذا المدير. آه يا ابنتي على نصيبك العثر الذي أرهقك وأنت شابة... البنت كانت ألطف الناس وأمرحهم. إنك ولحظة تعرّفك عليها لفترة قصيرة لَتشكر والديها في داخلك على تربية كهذه، لكن المسكينة تدفع ثمن اللاشيء، تقاسي طيلة أيام حياتها...

قاطعه المحامي يستفسر وقد بدا متلهفا في معرفة الكثير عنها:

-أقلت أنها كانت لطيفة ومرحة؟ هذا يدل أنها الآن تغيرت لسبب ما .

-المسكينة مرت بتجربة زواج قاس متعِب كان لا يدعها تلتقط أنفاسها. ابتليت بزوج أقل ما يمكن أن يقال عنه أنه وغد حقير من فرط ما كان مقامرا سكيرا تذهب أجرة عمله للقمار والشرب... فاتخذت قرارها الذي بلغ من القسوة ما بلغه هذا الزواج المعذب بكل أيامه. نعم هي لم تقل هذا، لكن إقدامها على الطلاق كان مؤلما لها، فهي لم تكن

تريد رجلا مثل ذلك الوغد ولا أن تصل للطلاق. أكيد أنها كانت تقول في داخلها لمَ لم أنعم بالزواج المستقر، بالزوج الصالح، بأجواء أسرية تمتد إلى الشيخوخة، فيطمئن داخلي وأترقب القادم في أمن واستقرار... هكذا كانت تحس، لكنها لم تكن لتقول هذا، فكيف ستقوله الآن وهي إنسانة أخرى؟ صارت مبعثرة المشاعر لأبعد الحدود، غاب المرح والحماس... تلك الإنسانة النشيطة، المرحة، وإن رأيت هذه الأشياء، فهي مصطنعة حتى تقول للغير كم هي بخير، وأن الأمور على أحسن ما يرام.)ينظر إلى موضع آخر(كلا يا ابنتي، ما أنت عليه واضح للعيان، لا تخدعي نفسك، فما في الداخل سيظهر للوجود في سهو تام منك.

تلفظ با إبراهيم بكلماته التي أبانت عن أب يتألم على ابنته، فألم الأب يكشر عن أنيابه أمام معاناة الإبنة أكثر من الإبن، يقول: إنه رجل، قد لا يحتاج من التعاطف ما قد تحتاجه الأنثى، فعواطف المرأة في لحظة ألم متدفقة بغزارة كسم يكفي لتغطية الجسد كاملا ليس كإفراز الرجل للعواطف، والذي لن يصل لنصف ما تفرزه المرأة في أبسط الأمور.

ذرف با إبراهيم دموعا سخية، ودعني أخبرك أن دموع العجائز غالية قليلة، فقد ذرف جلها في سنينه الماضية، ووعد نفسه أن يحتفظ بالباقي للمستقبل؛ لشيء يستحق...

أرسل هذا للمحامي الحجم الذي بلغه الموقف من حزن وأسف على الحاضر والماضي، وهو الذي لم يحرك ساكنا، فقد بقي ملازما مكانه، يشاهد با إبراهيم يبكي في عزلة. فالأمر بالنسبة له كان مشهدا قاسيا، فلا قوة أحس أنها تكفي لمواساة إنسان يبكي بسخاء هكذا، حتى أنه أدرك كل الإدراك أن الأمر لا يخص موقف اليوم، بل كانت الفرصة مواتية له ليستحضر الماضي وقساوته، ويبكي على الكل، في بكاء يكون قويا كافيا للوقوف في وجه كل تلك الأحداث. ولو تُرك يحكي لقام يحكي عن ماضيه المؤلم كذلك.

إننـا نحـن البـشر وكي نفـرح فرحـة قويـة قوامهـا الـسرور والسـلام والحـب، نقـوم بحفلـة نعلـم أنهـا لـن تتكـرر إلا بعـد سـنة أو سـنتين، فنفـرط في احتسـاء الفـرح، ونكـون متأكديـن أنـه لم يبـق شيء ليُحتـسى، كذلـك صرنـا نفعـل مـع الحـزن، نتـألم بدرجـة كافيـة، مسـتدعين كل حـدث مـؤلم، حتـى نـضرب معـه موعـدا جـد بعيـد.

يـأبى الحـزن والنكـد أن يـبرح الجـو، ويـأبى الحـادث أن ينجـلي آخـره، وحبـذا لـو كانـت رحمتـه في نهايـة لطيفـة. وبالعـودة إلى المحامـي فـؤاد، فالرجـل أحـس أنـه أفـرط في المشـاهدة دون تحريـك تعاطفـه نحـو الخـارج، فقـرر أخـيرا أن يخـرج مـا قـد يـواسي هـذا العجـوز المسـكين، فطمأنـه بـشيء كان حقـا مريحـا:

-اسـمع يـا عـم، أنـا رجـل قانـون قـادم مـن بيئـة بسـيطة، مـن حـي شـعبي لا يختلـف عـن حيّكـم...

رفـع بـا إبراهيـم رأسـه ينصـت كطفـل صغـير بـاكٍ يتحسـس مـن جـاء يواسـيه، وأكمـل المحامـي يقـول:

-أنـا شـخص متفهـم، صدقنـي لـن تجـد أبسـط المشـاكل معـي فاهـدأ... وكـما قلـت أنـت، فـذاك المديـر ضخّـم الأمـر إلى حـد بعيـد، فـلا تكـثر عـلى نفسـك الأسى، حتـى أن السـيدة التـي أخـذت الحقيبـة لـن يحصـل لهـا شيء، لا شرطـة، ولا محـاضر... أنـت فقـط اهـدأ، ولا تفكـر في الوضـع مطـولا.

قـام بـا إبراهيـم مـن مكانـه يـود تقبيـل يـد المحامـي، فامتنـع الأخـير عـن الأمـر يـردد:

-استغفر الله! استغفر الله يا عم!

وكـم مـن فقـير بسـيط النفـس يرتمـي لتقبيـل يـد غـيره مقابـل صنيـع يعنـي لـه الكثـير، لـه وحـده.

-أشـكرك يـا بنـي حقـا! فتفهمـك العقـلاني هـذا أراحنـي، لكنـك تعلـم أنهـا سـتفقد عملهـا الوحيـد هـذا، فـذاك المديـر لـن يـتردد في طردهـا حتـى لـو كانـت بريئـة...

قـال بـا إبراهيـم جملتـه الأخـيرة طمعـا في أن يقـدم المحامـي خدمـة أخـيرة لهـما بالتوسـط لأجـل أن تبقـى خديجـة في عملهـا، لكـن المديـر عـاد جـارا وراءه جـو العصبيـة، كـما لـو أنـه هـو صاحـب المحفظـة وبهـا ملايـين الدراهـم.

وأول مـا فعلـه أن صـاح يخاطـب بـا إبراهيـم بلهجـة قاسـية تبـثّ في النفـس أن المخاطَـب مذنـب:

-أيـن هـي التـي تدعـي أنهـا ابنتـك؟ إني لا أراهـا... ألا زلـت تـصر عـلى شـكوكك؟ اسـتيقظ يـا رجـل... (لعـب دراري الصغـار هـذا)!

خـرج لحظتهـا المحامـي يسـتأذن وسـط ضجيـج الحديـث، يحسـب المدى إلى نقطـة تطمئنـه، قـد كان اتصـالا ورده الآن مـن زوجتـه، أجاب:

-نعم...

-نعم! الأولاد بقوا وحدهم في انتظارك... أأنت بخير؟

-مشـكل بسـيط حـدث معـي هـذا الصبـاح... اتصلي بأمـي لتقلّهـم مـن المدرسة.

-قمـت بذلـك مسـبقا، لكنـك لم تخـبرني بمـا يحـدث معـك. أي مـن المشـاكل أوقعـت نفسـك فيهـا؟

-لاحقا عزيزتي...

-لا، انتظر! ستخبرني...

أود أن أخبركـم أن خديجـة صـارت الآن أمـام بـاب الإدارة تترقـب الدخول، وهـي تطـرق طرقـة ثـم أخـرى بيدهـا المنهكـة المسـلوبة مـن كل قـوة، ولا زال بهـا قلـق وخـوف يتراكـم في الجسـد فيبعـث رغبـة في الـصراخ كالأطفـال، وانتظـرت لبرهـة لتـأتي بالطرقـة الثالثـة، لكنهـا لم تتلـق الاسـتئذان حتـى تبـاشر بالدخـول.

خلـف ذاك البـاب، كان الصـوت صاخبـا، لغـط وصراخ لم تسـتغرب منـه، فهـذه حـال مديرهـم الـذي لا يهـدأ عـن المحاسـبة لأصغـر خطـأ سـيبدو للغـير شـيئا عاديـا. تملكهـا الـتردد في المواصلـة، وفكـرت أن تعـود في وقـت لاحـق،

ربما الجو في الداخل لا يسمح بحضورها وفمه الذي لا يعرف غير الصراخ والأوامر، لكنها رأت أن الأمر لا يقبل التأخير، فصاحب الحقيبة قد يكون في انتظار خبر عنها، فربما حملت في رفوفها أوراقا هامة تخص شركته أو إحدى صفقاته.

جاءها استئذان من نوع آخر كان غريبا بعض الشيء. فتح لها الباب دون أن تسمع أحدهم يكلمها أو يستنطقها: «لِمَ أنت هنا؟». كان شيئا مريبا يبعث في النفس الحيرة والتشاؤم مع تصاعد صراخ لم يتوقف منذ حضورها المكان. لكنها قاومت ما بدا لها مريبا، وتشجعت لتدخل. شيء من الفضول زارها اللحظة، ووسوس لها يستخبر عن الأمر. رأت با إبراهيم والعامل جواد جنبا إلى جنب في صمت تام، كأنهما يتلقيان تأنيبا قد بلغ أشده، وأحد المسؤولين في الإدارة-يشبه لحد كبير المدير- يراقب هو كذلك في صمت مطول.

لا أحد يتحدث سوى المدير الذي كان واقفا وسط مكتبه، يداه مفروشتان على سطحه، لا يزيل نظراته عن الحاضرين، يوزعها بتساو، والاعتقاد أنه لو نظر أسفل لكان مستسلما للواقع، لكنه بهذا يقول: لن أفارقكم اليوم حتى تجدوا حلا لهذا المشكل، ومن شدة ما تلفظ بأقسى كلمات التأنيب لم يجد ما يريحه أكثر من الوقوف.

نادت خديجة با إبراهيم بصوت خافت يكاد لا يسمع، متسائلة عن الواقع هنا:

-با إبراهيم...!

التفت با إبراهيم والعامل جواد في لحظة واحدة، كلاهما مندهشان من وقوف خديجة وراءهما، بل ومن حضورها الآني، غير مهتمين بما قالت جراء ما يريانه. وفي نفس الوقت، شاهدها المدير كذلك! قد زادت حدة رفرفة رموشه، بدا عليه شيء من غرابة الموقف. ظل صامتا لمدة دقيقة يحدق، صار الجميع يحدق بها بذهول مكثف جعل خديجة مشوشة جامدة في موضعها، تحدق موزعة ناظريها على الكل وكأن حالها

يسأل: ما الذي يقع؟ هل اقترفت ذنبا من الذنوب التي راودتني وقد حُذرت منها؟

كسر المسؤول الإداري صمت اللحظة، وخاطبها بلهجة جافة لا تختلف وقاحة عن تلك التي قد يتحدث بها مديره:

-أين كنت؟ العالم منقلب على سيادتكم...

أشار له المدير بيده للتوقف، قد كانت ترتجف بعصبية مبالغ فيها، يريده أن يترك له الكلمة. إنه يقطب حاجبيه الكثيفين، وشرارات متوحشة تتطاير في عينيه، وفي أنفاسه مجاهرة. تقدم تجاه خديجة متخطيا مكتبه، وبا إبراهيم يشاهد مشاهدة العاجز المستوعب كامل الاستيعاب أن حقه في النطق بأبسط العبارات التضامنية قد جُرد منه مسبقا. كان يعلم حق العلم أن تأنيبا قادما لابنته لن يكف عن نبش جروح أخرى إلى جانب الجروح القديمة، بل قد يمتد لشيء في الداخل، كم هو عزيز عليها، يمدها عادة بالقوة فيما تحتاجه للمواجهة، فيحطمه في منأى عن الآخرين.

-أهلا وسهلا بالسيدة خديجة! كيف حالك، حال عائلتك، حال الحي؟ سؤال واحد، هو فقط سؤال واحد: كيف كان حالك وأنت تحملين الحقيبة وتهربين؟ ما إحساسك وأنت تستنشقين الهواء ومعك ذاك المعتقد أن الحقيبة بها مال كثير وفرصة كبيرة نحو تغيير حياتك؟ مثلا... (يومئ برأسه، ويخطف نظرة ملؤها اللؤم) اشرحي لنا شعورك وأنت تمسكين بحقيبة وحيدة دون صاحبها، بها مال كثير؟ خاصة شعورك وأنت تكتشفين أن حشوها مجرد ملفات بأوراق بيضاء لا غير... تكلمي، تكلمي...

أخذ يضحك ضحكة ماكرة التقدير بغير رحمة، وقد تحول السؤال الواحد لأسئلة كثيرة. كان يكلمها بعبارات غير مفهومة وتُهم لم تستسغها أو تفهم المعنى منها، بل بقيت صامتة تنظر تارة لبا إبراهيم وتارة أخرى للمسؤول الإداري، وتبتسم ابتسامة مخدوع اكتشف لتوه أنه خدع

بعد الكثير من الغباء الذي رافقه طيلة عملية الخداع التي تعرض لها.

عاد هذه المرة بلهجة واضحة، لم يغب عنها أسلوبه اللاذع، وقد ازدادت حرارة جسمه من الحماس:

-الآن، ستقولين لنا كيف فعلت الأمر؟ كيف أقدمت على فعلك هذا؟ وكيف طاوعتك نفسك للرجوع بعد الذي فعلته، بعد أن علمت أن الحقيبة ليس بها مال؟ أنا أعذرك، فالواقع الذي تعيشين فيه صعب، وحقيبة ممتلئة بالمال كم كانت ستغير حياتك، ولو بأسبوع جميل... هو شيء مغر لا يقاوم، فلتسقط كل الأخلاق والقيم الاجتماعية، أليس كذلك يا آنسة؟

رأت خديجة أن التهم الموجة لها وجهت كذلك في حق وضعها الذي لا ذنب له سوى أنه بضعة أيام صعبة، وضعٌ تفرضه الحياة على الإنسان، حتى يكون وقعه ثقيلا في سبيل واقع أفضل، كما رأت أن خوفها وقلقها السابق لم يكن مجرد توهمات، وإنما حقيقة استباقية تجول في مخيلة المرء، مُكساة بضباب أبعد من أن يكون شفافا، ولو كانت المسافة الفاصلة قريبة، حتى لا تتضح لك الرؤية كاملة، فيقوم عقلك باستكمال ما كان الضباب يغطيه. وبالنسبة لها هنا، ما كان مغطى بالضباب ولم تستطع رؤيته هو اتهامها بالسرقة، فاستبدلته بالخوف من ترك عملها، هذا الذي يقع مع كل إنسان، فشيء من إحساسك الاستباقي للأمر يكون حقيقيا.

ساورتها أفكار وتخيلات عديدة عجزت عن تتبعها وتفحصها، بل ولم تملك أيضا الوقت الكافي للتفكير بما ساورها بقدر ما كانت تلح على نفسها بضرورة التصرف السريع حُيال ما هي فيه.

تكلمت أخيرا، وقد بدأت عيناها تمتلئان دمعا، وبصوت ضعيف مرتجف كاد يتحول لتأتأة لفظت:

-سيدي! أنا... لا يمكن أن أفعل هذا... مستحيل... مستحيل أن... أنتم تجهلون حقيقة الأمر.

نظـرت لحظتهـا إلى بـا إبراهيـم، وهـي تتحسـس كيـف قـد يكون شـعوره مـع مـا يقـع لهـا أمـام ناظريـه؟ كيـف الأمـر بالنسـبة لـه الآن؟ ذاك الشـعور الـذي يـسري بـك حـين تـرى قريبـا لـك، عزيـزا عليـك يعنـف أو يتلقـى أقـسى العبـارات السـيئة، في مشـهد يظهـره ضعيفـا، لاحـول ولا قـوة لـه.

اختفـى صوتهـا ووضعـت يديهـا عـلى وجههـا الغـارق في سـيل مـن الحزن، ينـذر أن سـماء العيـون، بـل سـماء الصبـاح المشرقـة، قريبـة مـن إسـقاط خيـط مـن الدمـوع، كأي امـرأة تحـس في لحظـة ضعـف منهـا، أن تغطيـة وجههـا بيديهـا الناعمتـين، ينتشـلها مـن نظـرات الغـير في مشـاهد ضعـف كهـذه. ومـن منـا يريـد أن يظهـر ضعيفـا، ولـو لدقيقـة واحـدة في حياتـه.

وسـط هـذا الجـو المشـحون المختلـط بمختلـف مشـاعر الحاضريـن، وتراشـقهم بالمعلـن والخفـي، دخـل المحامـي فـؤاد، وقـد دهـش لرؤيتـه خديجـة واقفـة، في وضعيـة تنـم عـن ضعـف وقهـر فيـما قـد تكـون سَـمعته مـن اتهامـات، بـدا لـه مشـهد وقوفهـا في الوسـط هكـذا، والمديـر أمامهـا يسـتنطقها، منظـر محاكمـة، فـتراءت لـه مجـددا كمحاكمـة مألوفـة، كانـت قـد حدثـت في وقـت سـابق يعـدّه مـن المـاضي البعيـد.

إن ترديـد خديجـة لكلـمات «ليـس ذاك! ليـس ذاك سـيدي!» أشـعره بـشيء مـن التأنيـب يشـق رأسـه كفـأس ينغـرس بسـهولة في العظـم الجـداري للجمجمـة، فالأمـر لم يكـن يقتـضي كل هـذه الأجـواء ومـا يصاحبهـا مـن نـكال وعـذاب قـد يسـببه للبعـض. رأى في بـادئ الأمـر لـو أن خديجـة حقـا سرقـت الحقيبـة بـأي دافـع كان، فإنهـا لـن تـتردد بالـصراخ، وهـي تعـترف بالأمـر مسـتحضرة كل بؤسـها ومعاناتهـا، فيتسـنى للحضـور العطـف عنهـا. وللـذي يقـول إن الإنسـان ينكـر حتـى يحفـظ مـاء وجهـه، فـإن مـاء الوجـه هـذا تلـوث منـذ أزل، منـذ رضي المـرء بواقعـه المـر، واستسـلم لليـوم دون مقاومـة روحيـة في الخيـال عـلى الأقـل.

قال في داخله لحظتها:

-خديجـة تقـول الحقيقـة، فـأي سـيدة هـذه التـي تعـود بعـد كل مـا

تعرضت لـه مـن معاناة، لتُستقبل بمعاناة أخرى ملؤها الاتهامات، تنغرس في خاطر المرء كسكين مدهون بسم ظاهر للعيان. إنها في حالها هذا قد تفضل الاختفاء، وقد تفضل السجن على الاعتذار، فأن لا تنظر، أن لا تنظر في أعين من آذتهم مهما كانت العقوبة، أفضل لها من اعتذار يبدأ بنظرات، وكلمات لا يرغب حتى الطفل غير المكتمل للإدراك من سماعها. إنها لا تكذب...! لم تكن تكذب قَطّ!

أخذ يبرئها دون اطلاع على الحقيقة كاطلاعنا نحن القراء وعلمنا بماهية الأمر، ربما هي روحه النقية الهادئة التي تمكنت من سماع الأصوات الصافية النقية تخاطبها، إن من مثل خديجة ومن فرط ما قاساه وجف حلقه من الصراخ نحو معتقد «ظلم الحياة»، يحس أن له دَين للحياة يجري ليل نهار لتسديده حتى يتحرر من عبودية الماضي المعذِب، فكيف له أن يزيد دَينه الحالي؟

-ها قد جاء الأستاذ فؤاد!

كذلك قال المدير يخاطب المحامي فؤاد وهو غارق في حديث داخلي، لو تمعنتَ في صمته لوجدته في الحقيقة مشاركة في النقاش، لكن بشكل أحادي صامت.

استدار الكل في اللحظة التي اقترب فيها المحامي من مركز النقاش، يرمقونه بنظرات فضولية، كانوا ينتظرون ردة فعله جراء الموقف، كما استدارت خديجة هي الأخرى تنظر له نظرة يأس وكأنها متهم يطلب العفو والرحمة قبالة إعلان القاضي لحكم معروف مسبقا، وإن ألقيت عليه نظرة أنت كذلك عزيزي القارئ، قد تلقى نظرة شفقة وتأسف لما وقع تغزو ملامحه وأحاسيسه، فقد فهم ما لم يفهمه أحد آخر. ليس الكل مخولا لهم رؤية الخفاء وسط جسد مكسو بعظام ولحم.

أردف المدير يكمل:

-إنها الآنسة خديجة يا أستاذ! قد أتت لنا وبكل وقاحة، تستعرض لنا عملها الرائع. أتعلم ماذا قالت؟ قالت يا سيدي أنها رأتك تركب

القطـار ناسـيا حقيبتـك بجانـب مقعـد الانتظـار، فـما كان منهـا إلا أن التقطتهـا وأخـذت تبحـث عنـك بـين الـركاب، تبحـث عنـك! فلـما لمحتـك وأنـت في القطـار تتقـدم بحثـا عـن مـكان تجلـس فيـه ركبـت القطـار وأ...

قاطعه المحامي يكمل ما كان يقوله:

-وأخـذت تتبعنـي محاولـة الوصـول لي قبـل أن ينطلـق القطـار، لكنهـا لم...

قاطعتـه هـو الآخـر خديجـة تكمـل وكأنهـا تتوسـل في آخـر بارقـة أمـل لمحتهـا:

-لكنـي بحـث عنـك يـا سـيدي حتـى فقـدتُ أثـرَك والأمـلَ معـه في خطـوة آمنـت بهـا، ومخافـة أن ينطلـق القطـار بي قـررت الهبـوط فـورا، لكـن كان القطـار قـد انطلـق...

وهنـا اشـتد نحيبهـا قاطعـا عليهـا الـكلام، فـبرى قلـب المحامـي لمرآهـا، وأكمـل يقـول:

-أنـا لحظَتَهـا كنـت قـد نزلـت مـن القطـار، تذكـرت أني وفي لحظـة شرود نسـيت حقيبتـي، فعـدت للبحـث عنهـا عـلى أمـل اسـتردادها، لكـن بـلا جـدوى...

لبـت الجميـع ينصـت لهـذا التنـاوب الفجـائي في سرد الواقعـة، والمديـر أحـس أنـه يلتمـس إعفـاء مـن كلام المحامـي. خيـل لـه حينهـا أنـه يفقـد السـيطرة عـلى اسـتنطاقاته نحـو إظهـار الحقيقـة، ثـم عـاد يـرد بحـزم، مـا زال هـو نفسـه لا يـدري الدافـع المسـتمر لتصرفـه العنيـد هـذا، وقـد انجـر للتلـذذ في تهمـه الخانقـة للعاملـة المسـكينة:

-دعـك الآن مـن هـذا ولتعـترفي بسرقتـك حتـى نتخـذ الإجـراءات التأديبية اللازمـة في حقـك، ولـك كامـل الحـق يـا أسـتاذ في متابعتهـا قانونيـا، الأمـر راجـع لـك.

عاد ينظر لخديجة مجددا في قسوة كاملة الأركان، ويتابع كلامه:

-بدايـة مـن اليـوم لا عمـل لـك هنـا، بـل بدايـة مـن الآن، كـما لا تعويـض

لـك، فليكـن في علمـك، مـاذا أقـول أنـا؟ بـل اشـكري اللـه أننـا لـن نـزج بـك في السـجن...

أظهـر المحامـي فـؤاد بسرعـة -بدايـة مـن انتهـاء كلام المديـر إلى نظرتـه الثانيـة نحـو خديجـة- أسـلوبه العفـوي في التعامـل مـع آخـرة الموقف. وسـارع يقول:

-لا! لا! ليـس إلى تلـك الدرجـة سـيدي المديـر، ثـم أي جـرم هـذا الـذي حـدث حتـى نسـتدعي الشرطـة؟ كـما أن الأمـر مـن بدايتـه هـو خطـإي، والمسـكينة لم تـرد إلا مسـاعدتي. أرجوكـم (يضـم يديـه ويرفعهـما نحـو الكل) لم يحـدث شيء، أرجـو تـلافي الأمـر، وأكملـوا يومكـم بهنـاء... رجـاء أيهـا السـادة.

سـعى جاهـدا بـكل مـا يملـك مـن كلام وحـركات تعبيريـة لتفسـير وجهـة نظـره مـن النازلـة، وطمأنـة خديجـة والحاضريـن المشـفقين عليهـا، ولكـن إحساسـه بالذنـب أدى إلى أنـين في صـدره جـدد لـه الرغبـة في إعـادة محاولـة ثانيـة وثالثـة.

وفي هـذه اللحظـة وبينـما كانـت المشـاعر تتبايـن والقلـوب تنفطـر والدمـوع تنسـكب والحـزن يغتنـم، سـقط بـا إبراهيـم أرضـا، سـقطة جثـا فيهـا أولا عـلى ركبيتيـه ويـده اليمنـى مبسـوطة تلاصـق مسـكن القلـب، أعقبهـا سـقوط كامـل عـلى البطـن ثـم تقلـب عـلى الظهـر، هنـاك فقـد وعيـه كامـلا، لم يعـد يصـدر أي حركـة. لقـد سـقط أمـام أعـين الحاضريـن في مـرأى منهـم، واقعـة فاجـأت الجميـع، تركتهـم صامتـين، يحـدق بعضهـم ببعـض، وكأنهـم ينتظـرون هـذا الـذي سـيلتقطه مـن الأرض، ويتفحـص سـقوطه وأسـبابه.

كان هـذا الشـخص العامـل جـواد، أقـرب شـخص لـه، تبعتـه خديجـة تـصرخ صراخـا يتصاعـد نواحـه... لم يعجـب البعـض، كل لـه أسـبابه، لكـن السـبب الواضـح أنـه صراخ يبعـث في الأذن نغمـة جـد قاسـية، ينفـر منـه الإنسـان، وإنكـم لتعلمـون شـدة صراخ نسـاء مجتمعنـا وقـت الكـوارث.

تموضعـت خديجـة بشـكل يمكنهـا مـن ضمـه جيـدا، حتـى يكـون وقـع الحـادث عـلى القلـب أثقـل، فيظهـر مـا بالداخـل. إنكـم تتسـاءلون لم ابتلـع

المديـر صوتـه؟ لقـد سـكت لبرهـة، دون أن يفكـر في إصـدار أي صـوت أو حركـة أو فعـل أي شيء كمديـر، ربمـا أحـس لحظتهـا وفي اعتقـاد منـه، أنـه مـا كان يجب عـلى الرجـل أن يسـقط ويجعـل خاتمـة الأمـر هكـذا، ربمـا ظـن أن لـه نهايـة أحسـن كان يمنـي النفـس بعيشـها، وجوهـر الاعتقـاد أن السـقوط عنـده شـأنه شـأن الـكلام، يحتـاج إذنـا منـه.

إلى ذلـك فقـد أخـذ يسـير نحـو بـا إبراهيـم، ومـا حملـه عـلى الإسراع في ردة فعـل إيجابيـة إلا كلام المحامـي فـؤاد، كان يحثـه بأعـلى صـوت أن يخـرج هاتفـه فيتصـل بسـيارة الإسـعاف عـلى الحـال، فلبـى النـداء مرعوبـا مـن الأمـر مفزوعـا منـه، لقـد تحـول إلى طفـل تُمـلى عليـه الأوامـر فيسـمع ويسـتجيب.

انفطـر قلـب خديجـة مجـددا بواقعـة أقـسى مـن تلـك التهـم الموجـة لهـا. رأت أنهـا المذنـب الوحيـد فيـما حـدث لبـا إبراهيـم، تبـكي وتعـود لتبـكي أقوى مـن السـابق، حتـى أن بعـض العـمال بـدأوا يحـضرون لمشـاهدة مـا حصـل. صـار المديـر يحـاول تـدارك الأمـر أخـيرا، يوجـه الأوامـر في كل الاتجاهـات، مـما أظهـر اضطرابـا في قراراتـه. أمـا المحامـي فـؤاد، فلـم ينحـن تجـاه بـا إبراهيـم يتفقـد أمـره، بـل ظـل واقفـا ينظـر بـأسى لمـا حـدث، متأثـرا في صمـت، حزيـن النظـرة. نظَـر إلى خديجـة بـكل إحسـاس وشـفقة، لعلـه يعـبر لنفسـه عـن أسـاه، نفـس بـدت كأنهـا تكـره كل مشـهد محـزن، بـل تعتـبره ملقاطـا يتحـين الفرصـة لإظهـار حـزن كل أحـد منـا، يلتقطـه مـن أعماقنـا ليذكرنـا بـه؛ دون رحمـة حقيقيـة.

كانـت خديجـة، وفي نظـر كل المراقبـين للوضـع، تتـألم ألمـا رهيبـا. كان واضحـا حتـى للأغبيـاء أنـه ألم لا يخـص الحـاضر فقـط، بـل هنـاك اسـتحضار لـكل لحظـة قاسـية عاشـتها، حتـى قـال بعضهـم في صـورة تضامنيـة وهـو يغـادر المجمـع هاربـا خوفـا مـن أن ينفتـح لديـه جـرح قديـم: يـا أسـفاه عليـك يـا أختـاه! يـا أسـفاه...

حـضرت سـيارة الإسـعاف مـع طاقمهـا المختـص، المختلـط بـين شـباب وخـبرة تـؤدي وظيفتهـا كالمعتـاد، تضـع في جـو حزيـن لا يعـد بالخـير بتاتـا

بـا إبراهيـم بداخلهـا المجهـز بأجهـزة تنفـس وقيـاس وإسـعافات أوليـة ترمـي إسـعاف المريـض في انتظـار الخضـوع للتدخـلات الطبيـة في المشـفى مـن عمليـات، وإلى مـا ذلـك.

خديجـة كانـت أول المنضمـين لـه وهـو ينقـل عـلى سـيارة الإسـعاف. تسـتمر في لـوم نفسـها بشـتى العبـارات. هنـاك مـن كان يراقـب سـيارة الإسـعاف، وهـي تختفـي بـين الشـوارع مـع صوتهـا المخيـف غـير المريـح (وكـم أرعبنـا ونحـن صغـار)، وهـذا المحامـي فـؤاد، يتأسـف عـلى الـذي وقـع ويتعهـد لنفسـه بزيـارة بـا إبراهيـم والاطمئنـان عـلى صحتـه التـي لم تطمـئن أحـدا، إذ كانـت منهـارة وسـط كومـة مـن الـكلام المرهـق... كـما لم تغـب خديجـة عـن بالـه، فـراح يتقـدم بحثـا عـن سـيارة أجـرة صغـيرة، وهـو يدعـو الـرب أن يكـون بجانبهـما في أقـرب فرصـة.

بخصـوص السـيد المديـر، فقـد كان يتابـع الموقـف وهـو يتلفـت حولـه، أخذتـه بعـض الأنانيـة، فقـد راح يفكـر كيـف هـو إحسـاس المسـافرين بعـد رؤيتهـم لموقـف اليـوم؟ كيـف سـتكون مكانتـه بعـد هـذا وهـو الـذي جـاء برغبـة كاملـة تعتـزم إدارة فترتـه للمحطة بشـكل خال مـن الأخطاء والمشـاكل؟ لكنـه يعـود للدعـاء لبـا إبراهيـم في خلسـة بالغـة الرزانـة والاحـترام بعـد أن عـاد لمكتبـه، أمـا تجـاه خديجـة، فلـم يلـن قلبـه بالمـرة، إذ قـال في حقهـا مدمدمـا:

-يـا لـك مـن امـرأة! حتـى بـا إبراهيـم لم يسـلم مـن كوارثهـا... أرأيـت يـا بـا إبراهيـم، كيـف هـي تلـك التـي تدعوهـا بابنتـك مـاذا جنتـه عليـك؟ آه! آه! يـا بـا إبراهيـم...

شيء من الماضي

ما دام الأمر برمته أطفأ بريق الأمل في حياة خديجة، وأعادها مدينة للحياة بكمّ كبير من الأحزان والهموم، فكيف السبيل لسداد هذا الدَّين نحو حياة أفضل؟ بل لقد أكلها الاستسلام منذ تلك اللحظة التي وقفت وهي تتلقى الاتهامات، كسوسة بدأت تنخر الأمل حيث وجد، كسوسة لا لون لها، ولا صوت لها سوى نواح طويل يطلب وبكل استعطاف: كفى... كفى...

الساعة الواحدة ظهرا، يوم جديد، نفس جديد، لكن أحداث البارحة ما زالت صامدة في النفوس، لا تنفك ترحل كمحتل. ودعوني أخبركم ما فاتكم البارحة، حين انصرف الكل إلى سبيل حاله في انتظار الغد.

لقد كان المحامي فؤاد يترقب الغد، وفي نيته الذهاب إلى زيارة با إبراهيم، ومقابلة خديجة. يبحث منذ ليلة البارحة عن كلمات يخفف بها من قساوة الأمر عليه، حتى أنه راح يفكر بحل في سبيل أمل يكون شمس الغد الدافئ. إذ لم ينم ليلتها حتى ساعة متأخرة وفقط تحت إصرار زوجته عليه بالنوم.

صار لا يفارق شرفة منزله، يراقب الآتي والراحل، يستنجد بفكره القانوني علّه يجد شيئا يستطيع تقديمه لتلك السيدة التي قاست بسبب هفوة ذاكرة منه.

بدأ يتذكر ليلتها بعض الأحداث. لم ينس المشهد المألوف له. محاكمة تذكرها لا تخص مهنته بل طفولته. حكى ما جرى في تلك الذكرى السيئة، وكأنه يحكي لأحدهم، إذ يأتيك وقت تحكي فيه لنفسك عن أشياء تؤمن

أنـك سـتحكيها للغـير عـما قريـب، كأنـه تدريـب لهـذا الحـكي القريـب، ففـي داخلنـا ميـدان تدريـب نفـسي، هـذا الـذي وقـع لـه، فتحـدث قائـلا:

«آه! آه! أمـا لهـذا الحـدث أن ينجـرف بعيـدا عـن بـالي...؟ كـم عرفتنـي المواقـف القاسـية صامـدا، لم يثننـي لا يـأس ولا هـم، لكنـي وعنـد تذكـره، أتذكـره بـألم أكـبر ولا يسـعني سـوى مواسـاة نفـسي. كيـف لي أن أنـصرف وحـدي إلى الغـد دون هـذا الحـدث القـاسي...

أتذكـر ذاك اليـوم وكأنـه البارحـة، حـين وقفـت مـع الحضـور أتأملهـم يقتـادون أبي... يـا لأبي المسـكين! مـا كان ذنبـك؟ سـؤال لـو كان في وسـعي توجيهـه للقـاضي الـذي بـدا لحظتهـا أنـه متلهـف لإنهـاء الجلسـة، ربمـا يـسرع لأجـل تلبيـة طلـب زوجتـه في إحضـار غـرض مـا للبيـت، في نزهـة كان قـد وعدهـا بهـا بوقـت جـد قصـير رأى أنـه يوشـك إخلافـه. ألم يسـعني فعـل شيء سـوى التفكـير في هـذا السـؤال؟ أنـا نفـسي كنـت أشـبه القـاضي، بـل حتـى أننـا متشـابهان في وعدنـا، أي طفـل بعمـري الـذي لا يتجـاوز الرابعـة عـشرة يعطـي وعـدا تعلـم أنـت سـامعه الـذي مـررت تـسرق هاتـف السـيدة وتصيـح بضحكتـك الماكـرة المنتـصرة عـلى ضعـف امـرأة أنـه وعـد أطفـال حالمـين. وأنـا لا أنكـر أني طفـل، أوليـس لي حـق في هـذا.

شـاهدت أبي يصـارع رجـال السـلطة بيـد ويشـير لي بالأخـرى ارحـل، ارحـل... كان يعلـم أن القـادم لا يناسـبني كابـن وطفـل، أراد أن تبقـى صورتـه التـي عهدتـه عليهـا ترافقنـي وأنـا أنـام في زاويـة البهـو أنـوه للجميـع أنهـا مـكاني، وأن الأمـر لـن يعجـب كل متطفـل متجـرئ عـلى الجلـوس بهـا، إنهـا حيـاة الطفولـة!

انتظـرْ حتـى تعلـم الأمـر! أتعلـم أمـرا، إن أكـثر مـا أثـار الحقـد في نفـسي الطفوليـة والمتحيـزة أكـثر لوالـدي- ولأي والِديـن مهـما بلغـاه مـن سـوء- هـي تلـك الصفعـة التـي وجههـا شرطـي لأبي. لقـد صرف كل مـا لديـه في عربـة السـمك تلـك، لكنهـم وبـكل أنانيـة مجـردة مـن أدنى قيـم التضامـن والاحـترام سـلبوه العربـة، كان ذاك بالنسـبة لـه أشـد مـرارة مـن الصفعـة، وأنـا كنـت

متأكـدا أن الصفعـة لحظتهـا لم تـزر ذهنـه المشـغول برؤيـة مصـدر رزقـه يؤخـذ، فيتلقـاه بغضـب وكـره. لكـن لنكـن صريحـين، حـين يكـون الإنسـان عـلى مقربـة مـن خسـارة الـشيء، فإنـه سـيطالك منـه سـخط وحقـد، ولـو ترجيتـه أن الأمـور سـتعود لما كانـت عليـه، لـن يهـدأ لـه بـال حتـى يفتـك بـك كـما يفتـك الأسـد بمـن هـم أمامـه، فيـترك بقاياهـم لأضعـف مجاوريهـم.

لا عليـك، أنـا لا أدري الدافـع لهـذا. أجـد راحـة غريبـة في سرد الأمـر، وأنـا أعلـم علـما يقينـا بنهايـة الأمـر، لا جديـد سـيكون... لقـد تـم اقتيـاد أبي في سـيارة كنـت أخـاف منهـا كثـيرا في صغـري كسـائر أقـراني، وقـد زاد خـوفي لحظتهـا أكـثر، انبثـق الخـوف مـن داخـلي وكأني لأول مـرة أعرفـه. قـال لي بعضهـم عـلى وجـه السرعـة «اذهـب! اذهـب بسرعـة وأخـبر أمـك، إنهـم يأخذونـه!» ركضـت وقـد أرعبنـي الـذي حصـل، كأني هربـت! خيـل لي أني أهـرب منهـم وكأن دوري قـادم. تمنيـت لحظتهـا أن أصـير أحـد أبطـال مسلسـلاتي الكرتونيـة كي أخـبر أمـي سريعـا... لكـن لمـاذا لم أفكـر وأنـا عـلى هيئـة أحـد أبطـال مسلسـلاتي الكرتونيـة في إنقـاذ أبي الـذي ودعتـه والجـو حزيـن؟

لم أره منـذ تلـك اللحظـة إلى أن جـاء وقـت المحاكمـة، كان نفـس الرجـل، لم يتغـير بـين أحضـان السـجن، وكلـمات القـاضي مـا كانـت إلا تأخـير لوقـت لم نحـس يومـا أنـه كان لنـا. شـهدت أبي المسـكين اللطيـف يترنـح في مكانـه، نظراتـه كانـت تقـول: هـلا رجـاء أنهيتـم هـذه المسرحيـة، أعـرف سـلفا أني سـجين لا محالـة.

كان أقـسى مشـهد في الأمـر أن يسـتدير أبونـا -نعـم كان أبي أبـا لي ولأمـي معـا- أن يسـتدير وهـو مبتسـم منهـزم انهـزام الأبطـال. لم أقابـل المشـهد بكامل وعيـي، إلا أننـي تذكـرت وعـدي حـين قلـت لـه أني سـأصير وزيـرا؛ لأنـه كان في نظـري سـقف السـلطة، أنتشـل أمثالنـا مـن قـاع المعانـاة، وأنتشـل القـاضي وأمثالـه مـن غياهـب الضيـاع عـن الحـق. كانـت زلـة يـوم حـالم، تحمسـت فيـه أقـصى حـماس، ومـن فـرط مـا آمنـت بـه، صرت أدعـو بيـدي الصغيرتـين

النحيلتـين كلـما أطفـأت أمـي الضـوء اسـتعدادا للنـوم... يـا للأيـام القاسـية، بـل يـا للإنسـان القـاسي. أتـدري مـا الـذي حـل بـأبي المسـكين؟ مـات! قـد مـات الرجـل حزنـا. أعدمـه التفكـير مـن جـراء مـا أحـس بـه مـن ظلـم، ونفـذ الحـزن فيـه حكـمَ الإعـدام بتواطـؤ مـع جسـده المنهـك... وهـا أنـا الآن حلبـة صراع، بـين مـاض وحـاضر، يدفعنـي كل هـذا إلى أن أحـرم نفـسي في بعـض الليـالي مـن نـوم هنـيء أتلقـى بـه أفضـل الـرضى عـن جسـدي...».

إن وفـاة والـده وبتلـك الطريقـة، تركـه معلقـا في ذاك الحـدث، لا يلبـث ينـسى فتذكـره الأيـام دون مبـالاة، مشـهد مـن الحـاضر كفيـل بـأن يعيـدك سـنوات إلى الـوراء، كانـوا يقولـون إن العـودة بالزمـن إلى الـوراء ضرب مـن الخيـال، وهـا هـم كـثر يمارسـون الأمـر يوميـا متنقلـين بـين ماضيهـم وحاضرهـم...

كان يسـتنجد بالليـل الهـادئ في شرفتـه، علـه ينـسى، حتـى أنـه كان يتناول بعـض الأدويـة طمعـا في النسـيان، وهـا هـو في هـذه الليلـة قـد أخـذ كأس مـاء وانفـرد في عزلـة يـشرب أدويتـه ويكلـم الخاطـر كلـما اشـتد الصمـت حولـه، فـلا يجـد إلا تلـك الأنفـاس التـي بلـغ مداهـا التنهـد، فيحـس بقـرارة حالـه، وإلى كـم غـاص بداخلـه.

اسـتمر في الأمـر يسـتلطف جـو العزلـة، يناقـش حالـه المضطـرب، يفكـر في خداعـه، هـل كل شيء بخـير؟ وهـو منفـذ الأمـر لمـا يتحسسـه. أخـذ يفـرك عينيـه مـن شـعوره بالنـوم، وبـدأ جانبـه الواعـي ينسـحب، رأى أنـه الوقـت المناسـب للنـوم، فـما إن أخـذ يضـع كأس المـاء الفـارغ، ويبعـد الغطـاء ليأخـذ لـه حيـزا في سريـره، حتـى كلمتـه زوجتـه مـن تحـت الغطـاء، وهـي تكشـف عـن وجههـا بلهجـة حازمـة متماسـكة:

-ألم تنم للآن؟ يا رجل إن الفجر قريب من الأذان.

-حسنا! حسنا! كدت أنام للتو، لماذا أيقظِتني؟

-أيقظتـك؟ لمـاذا تتكتـم عـن مشـاعرك الآن؟ أيمنحـك هـذا شـيئا مـن الأمـان؟

بدت غاضبة تكاد تستعيد يقظتها كاملة وهي تواصل:

-دائما أنت هكذا، كتوم! ألست زوجتك؟ ألا حصة لي من مشاعرك الأليمة؟ أنا أعلم أنك تمنح عائلتك كل مشاعر الحب والود، لكنك تدري كم أنت كتوم في ألمك. أليس في الجنائز تجمعات لتقاسم الحزن والتلفظ بشتى عبارات التضامن؟ آه! يا فؤاد، ماذا يمكنني القول...)الله اهديك وخلاص(!

أكمل استعداداته للنوم، يحاول تهدئة الجو قائلا:

-نامي، ليس هناك شيء يستحق...

-يستحق ماذا؟ أنا بالضبط أحاول تفسير هذه الكلمة «يستحق»، تراك ماذا تقصد؟ أووف! إنك تغيظني... من الأفضل أن أنام...

-تذكرت الماضي مجددا، وتذكرت أبي. عدت مطاردا من أسفي على ما مر، ومن حسرة تحاسبني وأنا الذي ما كنت إلا طفلا أقصى ما يمكنه فعله هو البكاء. أرجوك اخلدي للنوم، الأطفال قد يستيقظون، هيا...! أنا أكن لك حبا جما، فلا أريد لهذا الحب أن يتلطخ بجانب أسود من ماضي... يكفي ما أراه من حزن لدى أمي وقد تجرعت داخلها مرارة من فرط ما استسلمت وعند تلقيها نبأ وفاته... لم يكن أمامها إلا أنا، فتعانقنا كأعزلين أمامهما مجموعة من المسلحين. كنت قد وعدت نفسي ألا أعانقها لأي شيء حتى تكون يدي وفمي وكل ما لي قد تجند لإسعادها بخبر مفرح...

-ما لك سكت يا رجل؟

كان في الحقيقة حواره الأخير داخليا لا إجابة لزوجته.

أجابها هذه المرة ببرودة متناهية الأجل وكأنه يدعوها لإنهاء الحديث:

-إنه المشكل نفسه. لا عليك، يزول غدا، فقط نامي... سأنام الآن.

ثم التفت للجهة الأخرى بحركة سريعة، مغطيا رأسه. عادةٌ دأب عليها منذ الصغر، إذ لا يستطيع النوم دون أن يغطي رأسه.

لم يـترك لهـا حـق الـرد، حتـى أن المـرأة استسـلمت مـن شـدة تكتـم الرجـل عـلى أحزانـه التـي نـادرا مـا تخلـع رداء الكتـمان، ليـس كاستسـلام صاحبهـا، وإنمـا إبـرام مصالحـة مـع المصـير. كان قـد أغمـض عينيـه يتعهـد نفسـه بالنـوم حـالا، لكنـه لا يتخلـص مـن إصرار خفـي أسـال لعابـه عـلى حديـث شـائق سـيدار هـذه المـرة داخليـا لـو قبـل، وهـذا الـذي حـدث. عـاد يقـول خفيـة، يسـتكمل حـوارا كان منـذ قليـل:

-آه! كـم هـو صعـب عـلى الإبـن أن يـرى أحـد والديـه يبـكي- بحرقـة أم بشـكل عـادي لا فـرق- متأتئـا في الـكلام. عكـس الأب الـذي إذا رأى ابنـه يبـكي، يصمـت، ويقـول بداخلـه: «ربمـا في مصلحتـك، فأمامـك الكثـير لتتعلمـه في الحيـاة»، لكـن الإبـن الـذي يـرى والـده يبـكي، وقـد تقلـص وجهـه مـن شـدة مـا أبـان عنـه مـن ألم يقـول: «مـاذا بقـي لـك لتتعلـم حتـى تبـكي هكـذا...؟»

لقـد نـام بعدهـا، نـام بوضعيـة الجنـين؛ هـي وضعيـة نتخذهـا عندمـا نتـألم لأمـر مـا، وكأننـا ننسـحب مـن الحيـاة، عائديـن إلى مـا قبـل الـولادة، إلى بطـون أمهاتنـا الدافئـة الآمنـة.

اسـتيقظ بعـد ليلـة طويلـة عـلى صـوت الأولاد يتسـابقون نحـو طاولـة الفطـور، والزوجـة نالهـا التعـب مـن فـرط مـا رتبتهـم وأعدتهـم أشـد عـدة ليـوم آخـر مـن الدراسـة. وفي لحظـة تفقـده السـاعة، صـاح صـوت رقيـق ضعيـف ليـس بغريـب عنـه، قـام يتحقـق هـل هـو الـذي ببالـه، كان الصـوت لأمـه، أتـت باكـرا قبـل أن يسـتيقظ الجميـع، نسـتطيع القـول أنهـا هـي مـن أيقظتهـم بدقائـق عـن موعـد اسـتيقاظهم المحـدد.

صاح ينادي بفرح زائد كالطفل:

-أمي هنا وأنا آخر من يعلم! أهلا وسهلا بالدنيا.

قبـل رأسـها، ونظـر نظـرة خاطفـة يتفحـص مـا عـلى الطاولـة مـن فطـور. اعتقـد اعتقـاد الطفـل أنـه سـيجد مـا يبحـث عنـه، «المسـمن»، كانـت أكلتـه المفضلـة التـي لم يفطـم بعـد منهـا، ينعـم بتذوقهـا فقـط مـن يديهـا الذابلتـين المنقطتـين ببقـع بنيـة صغـيرة، مـن كـثرة مـا مّ عليهـما مـن عمـر وهـمّ.

قالت الأم:

-تفضل بجانبي، ها قد أعددت لك ما تحبه... (بالصحة والراحة أولـدي).

تتكلم زوجته مازحة:

-تذلل، تذلل... فقد حضرت أمك.

-ولِمَ لا أتذلل بين يدي أمي...)الله يخليك ليا الوليدة(.

قال هذا حتى كاد يرقص فرحا بلحظته وهو ينظر لأولاده وزوجته، كأنه يقول لهم «انظروا! أنا الآن تحت رعاية أمي».

إني قد أكون غريبا مما قد أقوله، لكن يأتي على الأب لحظات يشعر فيها بالغيرة من أولاده وهم يتذللون في حضن أمهم، إنما هو يشتاق، يشتاق إلى هكذا مشاهد مع أمه.

خرج المحامي فؤاد من منزله، وقد أزال شوقا حثه على زيارة أمه، فهو لم يزرها البارحة بسبب ما وقع له، بالأحرى كان هذا سبب زيارتها الصباحية، هذا قلب الأم، انشغل بالها من غيابه، حتى أنها رفضت فكرة الهاتف، أرادت أن تطمئن شخصيا. يمكننا القول أيضا أن خاطره المعكر صفا، كذلك بطنه شبعت، أحيطكم علما أنه ورغم حبه الشديد ل»المسمن» إلا أنه كان لا يأكل إلا واحدة ونصفا وقد تصل أحيانا إلى اثنتين، لا يزيد عليهما، وكانت دائما ما تمازحه أمه قائلة: «كلّ هذه الجلبة وفي الأخير غير قادر على إكمال اثنتين...»، حتى لقد نسي أمر خديجة وما كان وعد نفسه البارحة. أخذه الوقت إلى الطريق يحسب خطواته حتى تذكر. توجه في بادئ الأمر لعمله الذي حصره في ساعتين، فمن عادته وعند الخروج من المنزل أن يستذكر برنامجه اليومي، لكنه يسطّر على الحدث الرئيسي في جدوله، وهذه المرة عنوَنه بِ: خديجة.

على سيرة خديجة المسكينة التي لم تبرح مكانها في المشفى منذ البارحة، فإنها لم تكف عن لوم نفسها المرهقة الحاملة لما لا تطيق، دعت في وقت متأخر أن تعفى من تفكير خانق، وتلجأ لأرض النائمين،

كانت حقا بحاجة شديدة للنوم. ظلت ليلتها وحتى صباح اليوم الموالي تتذكر ما وقع في أسى ومعاناة معذبة، هذا لم يمنعها من تحليل الأمر واستدعاء كل حواسها ومكونات فكرها تطلب شرحا مفصلا، فالأمر لا يعنيها الآن وحدها حتى لا تتجرأ على نفسها، وتمضي دون معرفة الواقع.

إنها الساعة الواحدة ظهرا. اتجه نحو المحطة بأكمل استعداد لهذه اللحظة، بعد أن أنهى جلسة مهمة في المحكمة بقدر أهمية ما كان في الحقيبة، بل إنهما الشيء نفسه، ما كان في الحقيبة شيء هام يخص الجلسة. إننا وبالحديث عن هذه الجلسة، قد نكون نتحدث عن سيدة أخرى لا تختلف عن خديجة. إذن فلنتحدث عن شيء من هذه الجلسة حتى نعرف أكثر:

كانت تمشي منتشية بانتصار عظيم، إنها أم تحارب من أجل حضانة ابنها، والمحامي فؤاد يرافقها خارج قاعة الجلسة، يتحدثان عن انتصارهما الآني، تخبره أن صنيعه لن ينسى مدى الحياة، كما لن يجزى بأي جزاء مهما بلغ وزنه، وراحت تنهال عليه شكرا أخويا، تمدح أسلوبه وفطانة تعبيره الجميل: أشكرك يا أخي فؤاد على مجهودك، كنت رائعا حين...

«-سيدي الرئيس، حضرات السادة المستشارين، طبعا نعلم كم أن بعض الآباء يكونون أقرب للأبناء من أمهاتهم، وها أنا أب أمامكم لي ابنان كم أحبهما، لكن أن يأتي هذا الأب طلبا في الحضانة بعد أربع سنوات من تركه لطليقته تحارب في الحياة دون معيل، بوضع مادي مزر، فإننا نصطدم أمام سؤال واحد، بعد إذن حضراتكم سأوجهه للأب.

دفاع الأب:

-أعترض يا سيدي على توجيه أسئلة لموكلي.

القاضي:

-اعتراض مرفوض.

المحامي رشيد يسأل:

-شكرا سيدي الرئيس... إنه لسؤال بسيط لم يستدع من زميلي في المحاماة هذا الاعتراض. هو كالآتي: بعد أربع سنوات من فراق الزوجة والابن دون نفقة تعيلهم، لم الآن وفي وقت كهذا، تصر على أخذ الحضانة من أمه؟

الأب صامت صمت المتفاجئ، ذهب باله إلى شيء آخر، فأحيانا ينجر تفكيرنا أبعد من المطلوب عند بعض الأسئلة، ربما حيطة فكرية، كأنه صوت خفي بداخلك ينبهك لاستعداد تتجهز به لكل قادم. ربما اعتقد اعتقادا تأهبيا أن السؤال قد يطرح حول شيء سري يحتفظ به بعيدا عن علم أحد.

انقض المحامي فؤاد على صمت الأب مانحا نفسه حق الإجابة:

-أنا سأجيب، حسب قول موكلتي فإن سبب هذا الإصرار المفاجئ هو زواجها الحديث الذي لم ينقضِ عليه أسبوع واحد من رجل آخر. وأخيرا بعد أربع سنوات من الكفاح والمثابرة بأبسط الإمكانيات وجدت معيلا، وكما نعلم فالمادتين 175 و 176 من مدونة الأسرة تقول أن زواج الأم الحاضنة لا يسقط حضانتها، فالإبن ما زال في السنة السابعة من عمره، كما أنه لا يقوى على فراق أمه... ودعوني أنوه بشيء يخص هذا الزوج الجديد، إنه رجل عاقر لا يلد بعد تجربة زواجين، وقد رأى في خديجة وابنها الملاذ الأخير له، في نيته تربية ولدها كأنه من صلبه، يطمح لتكوين أسرة صغيرة... هذه شهادة طبية تثبت ما جاء على لساني (يقدم الشهادة الطبية للقاضي، ويعود لمكانه). وماذا فعل الأب؟ نكاية في هذا راح يطلب حضانة الإبن لا غير.

قال دفاع الأب:

-سيدي الرئيس... إن الادعاء الذي جاء به زميلي أن زوج موكلته لا ينجب وسيعامل الأبناء معاملة أبناء من صلبه جميل، يدعونا لنعتز برجولته، لكن... (يغادر مكانه بضعة سنتمترات قليلة) دعوني أخبركم أن موكلي تزوج منذ ثلاث سنوات، منذ ثلاث سنوات، دون أن ينجب، وهنا

أنـوه أن لمـوكلي الحـق في ابنـه أيضـا، طمعـا كأي أب أن يعوضـه عـن وضعـه الأسري هـذا.

تدخـل المحامـي فـؤاد للـرد، وطلـب أن يوجـه سـؤالا آخـر لـلأب، الـذي اضطـرب وتحـرك فكـره عـلى غـير انتظـام كقـارب ثـار في وجهـه المـوج:

-سـيدي الرئيـس، علمـت مـن مصـادر موثوقـة أن الأب قـد بـشر بخـبر مفـرح، سـيرزق بمولـود مـن زوجتـه الحاليـة. هـل ذلـك صحيـح سـيدي؟

وجـه سـؤاله الأخـير وهـو يبتسـم في وجـه الأب، والقـاضي أعـاد توجيهـه لـلأب وهـو يذكـره بعقوبـة الكـذب عـلى المحكمـة...

أجاب الأب متلعثما في الإجابة:

-ها...! لا! نعم!

القاضي بلهجة حازمة:

-كيف تقول: لا، نعم؟ أريد إجابة واضحة.

أجـاب الأب هـذه المـرة بوضـوح تـام، معترفـا أنـه ينتظـر ابنـا مـن زوجتـه الحاليـة، ولم يمـض عـلى سـماعه الخـبر المفـرح أكـثر مـن أسـبوعين، وأنتـم تعلمـون مـاذا يحصـل للأخبـار المفرحـة في عـالم النسـاء، سـتصل بـكل تأكيـد لآخـر الدنيـا...»

قرار بائت

لقد وصل للمحطة منذ وقت ليس بكثير بينما كنا نحن نتحدث عن شيء من هذه الجلسة. اتجه لمكتب المدير، ولقد استغرب أمرا، إنها المرة الأولى التي يأتي فيها لمحطة القطار، دون أن تكون نيته استقلال أحد قطاراتها صوب وجهة محددة. لبث في مكتب المدير ينتظر بضع دقائق، إذ لم يجده في مكتبه مع صوته المرتفع في سبيل تأديب كل مخالف لقوانينه. جعله هذا يعتقد بسخرية في داخله: «لربما يقوم بتأنيب أحدهم اللحظة في موقع ما».

لكن أحد الموظفين بالمحطة كسر تلك العزلة، قد دخل يرحب بالمحامي قائلا: إنه يجوب أروقة المحطة كإجراء روتيني... تفضل... أتشرب شيئا ما...؟

كأنه تلقى ردا على اعتقاده، إذ يحصل أحيانا أن نسأل ونجيب ونعتقد، كل هذا يحدث بداخلنا، لكننا نلقى ردا من الخارج، فقد كنا نحن السؤال والجواب، وكل ما يصاحبهما، وذاك ضرب من عدالة الفكر.

لم يتأخر المدير في الحضور، دخل مسرعا، باسطا يديه للسلام، يرحب بالمحامي فؤاد كترحيب صداقة تشهد ثاني لقاء لها، كما حين تأخذك راحة سلوكية تبيح لك جرأة زائدة في كل شيء. لقد كان يبتسم، لم يكن ذاك المدير الذي شهدناه البارحة، يبدو أنه تغير أو هكذا خيل للمحامي. فتجاوزك اللقاء الأول وما تم الإفصاح عنه آنذاك يجعلك تعتاد، فيصور لك أن الشخص بكل ما فيه ليس إلا شخصا عاديا كغيره من الناس، وهذا راجع لعدم ظهور شيء جديد فيه يفاجئك.

صار الاثنان يتحدثان عن البارحة، استذكرا ما حدث، وأخذ المدير يتحدث عن با إبراهيم بتعاطف وتقدير كبيرين قائلا:

-إنه لرجل قوي! صامد متأهب للقادم في صورة شبابية... الحمد لله أنه عاد لمنزله... أتدري يا أستاذ، إنه قوي! لم يبق في المشفى لوقت طويل، كان يواصل القول وبعناد:)يلاه نمشيو الدار).

-الحمد لله أن الأمر لم تكن له آثار خطيرة.

كذلك عبر المحامي فؤاد، كارتياح أحس به لحظتها. وأردف يقول، وهو يرتب جلسته:

-حسنا، جئتك اليوم في أمر العاملة خديجة. أعلم أن ما وقع جعلك تغضب بشكل بدا ظاهرا من أسلوبك البارحة، إني أشفق على السيدة مما وقع لها، فما حدث قد حدث، كما أن الخطأ خطئي، نحن لا نريد حمل وزر أحدهم... الحقيقة يا سيدي لي طلب بسيط، وأرجو ألا ترفضه، إنه يخص عملها، فالمسكينة ولظروفها البائسة وما عاشته البارحة... سيكون جميلا أن تعيدها للعمل.

بدأ المدير يتلمس لحيته الخشنة، ويستكبر لا على المحامي، بل على اللحظة، حتى يقنع نفسه بأهمية موقفه وقراره، هكذا يحس من هم في شبهٍ مع المدير.

أجاب بهدوء غير معتاد، يجدد نفَسه:

-يمكنك الارتياح من هذه الناحية، يمكنها العودة واستكمال عملها، الحقيقة أني كنت أفكر في الأمر، سيكون هذا أيضا خبرا مفرحا لبا إبراهيم، نعم، سيفرح... الحقيقة يا أستاذ أني لا أملك مشكلة مع البنت...

قال جملته الأخيرة دون أن يكون مطالبا بقولها، أو أن يفسر تصرفه القاسي معها، فالملاحظ أن طبيعة الرجل هكذا، قائمة مع جميع العاملين، لكن إحساسه الداخلي لما ارتكبه من تعنيف مفرط في حقها جعله يتحدث عن الأمر ساعيا لإراحة نفسه من هذا الشعور.

تابع يقول:

-السيدة منذ أن أتت لم يصدر منها أبسط مشكل، منضبطة، حريصة على العمل الجاد، لكنك تدري أنه الواجب، الحق يقال... وهل تعلم يا أستاذ أنها مجازة في شعبة القانون؟ أتأسف على حال شبابنا اليوم، شهادات لا تزيد حاملها إلا رغبة في قتل روحه التي طاوعها حتى أمضت السنوات في سبيل أمر لا ترغبه، لكن هذه هي الحياة.

شدت كلمة «مجازة في القانون» انتباه المحامي، راح يوقف كل تركيزه، مطفئا حواسه، يختلي بالكلمة سعيا منه لشيء أضمره سكوتا.

عاد يطلب من المدير أن يتصل بخديجة كي تحضر حالا، حتى يخبرها بالقرار الآني، حتى يطالها هذه المرة في حضرتهم اعتذار منه، ولو كان متأخرا. كان المحامي عازما مبتغيا للاعتذار، ربما يمضي في أيامه القادمة مرتاح البال. طلب الأمر وسعى له بكل ما أوتي من تضامن وإنسانية، وهو ما طاوعه فيه المدير متنازلا قليلا عن عهده الذاتي، وكأن المحامي ذكره بالجانب المشرق منا فاتخذ حدوه. ألا إن الإنسان مهما بلغ من قسوة فأقل ما يحتاجه ليظهر جانبه المشرق هو مجرد تذكير.

اتصل المدير بخديجة، كخطوة حسنة. تفاجأت المرأة وبشكل كبير، بل تركتها الدهشة من الأمر تصمت لبرهة بعد أن قالت: ألو..! لكن الأمر انتهى بتلبيتها للنداء على وجه السرعة بإلحاح منه أن تسرع قدر المستطاع. ربما اعتقادها أن الأمر لا يعدو أن يبلغ أخذ مستحقاتها هو ما ينتظرها، ومن فرط ما هي في أمس الحاجة لهذه المستحقات، فرت من نفسها الداعية لتتجنذ بكرامة كافية تقف بثبات أمام أي انحناء أمام كلماته.

كان الوقت يمر ببطء كأن به عطبا، هذا ما أحسه المحامي لرغبته الملحّة في اللقاء كونت له انتظارا وترقبا هامين بداخله. وها هو ذا ينتظر واقفا، يحدق إلى زجاج جديد المظهر، نظيف الطلعة، يبادله نظرات الترقب، حتى دخلت خديجة تبلع صوتها، معلقة ابتسامتها إلى أجل آخر. انتظرت أن يخرج المدير من فمه ما قد يكون تبريرا لإحضارها إلى هنا، لكنها دهشت لوجود المحامي.

اضطـرب تفكيرهـا وعمـت سـحابة التشـاؤم في سـمائها، تنتـشر مغطيـة أكبر مسـاحة، فرؤيـة مجلـس يجمـع طرفـين رئيسـيين فيـما وقـع لهـا البارحـة سرّع لذهنهـا كـمّا كبـيرا مـن الأفـكار، تتواردهـا كل عـلى حـدة. فتـارة تقـول لنفسـها: «أيمكـن أن يكـون اتهامـا جديـدا قادمـا؟» وتـارة أخرى:»هـل أتيـا بي إلى هنـا حتـى يسـتدعيا الشرطـة؟». لكـن لا شـيئ مـن هـذا سـيكون، بـل حتـى تلـك السـحابة السـوداء سـتتبدد وتتحـول ليـوم مشـمس يدعـو النفـس لنزهـة مسـائية.

دون مقدمات، وفي طرح سريع، تكلم المدير يقول:

-ناديتـك اليـوم لأمـر يخصـك، إنـه بخصـوص عملـك... بعـد الـذي حـدث البارحـة، ومـما شـهدته، وبالوقـوف عـن كونـك لم تفعـلي مـا اتهمـت بـه، فـإني قـررت عودتـك للعمـل)تظهـر علامـات التعجـب عـلى خديجـة(، لعلـه يسـتوجب عليـك نسـيان مـا حـدث البارحـة كـما نسـيناه نحـن، ودون نسـيان شـكر الأسـتاذ فـؤاد، فالفضـل يرجـع لـه.

وحين تذكر أمرا آخر أسرع يقول:

-آه... حتـى السـيدة فتيحـة - المشرفـة عـلى النظـام-، لقـد أصرت أن تعـودي إلى العمـل. إن المـرأة تحبـك كثـيرا، لم أسـلم هـذا الصبـاح مـن لسـانها القـوي... أوه، أنـتن معـشر النسـاء! إنكـن خطـر عـلى صلابـة الرجـل.

عـم الصمـت لبرهـة، وتوالـت مواقـف التعجـب بداخـل خديجـة، لكـن هـذه المـرة تعجـب لا يقلـق. أمـا قرارهـا المرافـق لهـا نسـتطيع القـول أنـه اتخـذ منـذ مـدة، مـن يـدري متـى؟ ربمـا منـذ حملـت نفسـها حاملـة بصنيعهـا الشـجاع إلى مكتـب المديـر، فاسـتقبلت باتهامـات جارحـة.

تأنـت في الـرد كجبانـة تهـاب الـكلام في حضرتهـم، لكنهـا تجـاوزت هـذا وتشـجعت في كبريـاء وترفّـع لتقـول:

-إني يـا سـيدي أشـكرك، كذلـك أنـت يـا سـيدي -للمحامـي- لـك جزيـل الشـكر، لكنـي لا أسـتطيع القبـول بهـذا... الحقيقـة، وجـدت عمـلا البارحـة، يـا لسرعـة الأمـر! لكنهـا مشـيئة الـرب... صادفـت رجـلا في المشـفى أشـفق عـلى

حـالي كشـفقتكم الكريمـة هـذه، وقـال إنـه لأسـتطيع بـدء العمـل منـذ الغـد. هـذا كل الأمـر. عـلى أي، أكـرر الشـكر مجـددا.

لم يستسـغ المديـر مـا سـمعت أذنـاه، بـل استشـاط داخلـه غضبا وسـخطا مـما قالـت، «كيـف لهـا أن ترفـض كرمـي؟ يـا للوقاحـة!» ردد بداخلـه هـذه الجملـة التـي لا يبـدو أن لهـا متسـعا في الداخـل، تنـادي نفسـه المتعاليـة أن يقـوم مـن مكانـه ويتلفظهـا جهـرا. وفي الجانـب الآخـر كان المحامـي هـادئ الأنفـاس، ربمـا اعتقـد أن حـدود كرمـه تقـف هنـا، فعـل الـلازم، والقـرار الأخـير يعـود لخديجـة، أم تـراه أضمـر شـيئا في نفسـه؟

اسـتأذنت خديجـة بالانـصراف، وانسـحبت حـرة دون أن يجـف بـئر عنادهـا فيـما اختلقتـه مـن كذبـة كبريـاء. فقـد رأت أن كرامتهـا فـوق كل شيء. اعتـبرت أن مـا تعرضـت لـه مـن اتهامـات قاسـية مرفـوض كل الرفـض، إنـه لا يغتفـر، لم يكـن هنـاك داع لـكل مـا عاشـته، يمكننـا القـول أنهـا نالـت حصتهـا كافيـة مـن التعنيـف والاتهـام.

قـام المحامـي يلحقهـا عـلى وجـه السرعـة، تعلـو وجهـه ابتسـامة غريبـة. لقـد كان متيقظـا لـكل مـا صـدر عـن خديجـة، علـم أنهـا كذبـت بموضـوع فرصـة اشـتغالها المفاجئـة تلـك، احترامـا لمبادئهـا المقدسـة.

صاح يناديها بصوت خافت مؤدب أقصى الأدب:

-خديجة، لحظة...

-أستاذ!

خاطبت نفسها تقول: ما الذي يريد... (أش بغا عندي هذا ثاني؟)

-هل لي ببعض من وقتك. ها؟

استـدارت خديجـة بشـكل كلي كإعـلان عـلى قبولهـا التـام، وأكمل هـو يقول:

-كـما تعلمـين أني مـن سـعى لعودتـك للعمـل... إني متأسـف إن كنـت سـببت لـك بعـض المشـاكل، إنـه غبـاء منـي... أنـت كنـت الملامـة في الموضـوع، لـذا أتأسـف مجـددا عـلى مـا حصـل... الحقيقـة أردت تقديـم خدمـة صغـيرة للتكفـير عـن غلطتـي الكبـيرة لعـلي أرحـل في طمأنينـة...

صمت لبرهة كأنه يلتقط أنفاسه ويرتب أفكاره، وأردف يقول وهو يؤشر بإصبع الإبهام تجاه مكتب المدير:

...-ما قلتِه منذ قليل، ذاك العذر، أعلم أنه كذبة مضللة لا غير. كلنا اضطررنا لاستعمال هذه الكذبة في يوم ما للتملص من شيء وبأقل ضرر. إني أعلم ما مررت به في حياتك، إنه با إبراهيم... على أي كيف حاله؟ سمعت أنه بخير... رجاء، سلمي عليه... لقد حكى عنك بحزن رهيب. في الحقيقة من الجيد أنه تحدث والمدير كذلك، ذاك الرجل القاسي في أعينكم حكى عنك بلطف.

-إني يا سيدي أكن لك كل الاحترام منذ رأيتك، وأكنه لكلامك اللبق ولمشاعرك الحساسة المتأهبة للتعاطف مع الغير بغرض المساعدة، وقد بدا هذا واضحا ليلة الأمس، لحظة اعترافك أن الخطأ خطؤك... إني لأشكرك كل الشكر. إن معاملتك هذه تستحق كل العرفان.

هكذا ردت خديجة، كانت صادقة الرد من فرط ما صار الجو نقيا بمشاعرهما.

أخرج المحامي فؤاد بطاقته المهنية، وقام يمدها لها قائلا:

-الأستاذ فؤاد ال... محامي بهيئة الدار البيضاء.

استغربت خديجة من خطوته التلقائية تلك، جعلها هذا لا تهتم لمهنة الرجل، والتي لطالما تخبطت في تخمينها وها قد ظهرت أخيرا، لقد غاب ذاك الاهتمام الفضولي الذي عرفته أول لقاء.

تابع يقول:

-علمت يا خديجة أنك حاصلة على شهادة الإجازة في شعبة القانون، وتعملين عملا لا يليق بمستواك. أؤكد لك أن هذا ليس عيبا البتة، لكن العيب هو أن تستسلمي، لا أعلم ما مررت به في الماضي حتى أقول لك هل استسلمت أم لا، لكن ما سأقدمه لك الآن، لا أريدك أن تظهري استسلاما فيه، في الحقيقة، لا تتخلي عن فرصة كهذه. (تتسع عينا خديجة من الاستغراب). إني أعرض عليك التدرب في مكتبي كمحامية،

تستعدين لأخذ الدفة من جديد في حياتك... الحقيقة أن هناك امتحان محاماة السنة القادمة، إنه لفرصة مواتية، وبطبيعة الحال تدربك في مكتبي سيمكنك من الاستعداد بشكل ممتاز، وطبعا سأكون معك خطوة خطوة، لا تقلقي يا أختي...

قاطعته بصوتها الضعيف الهش تقول:

-القانون! إنه لوقت طويل منذ أن أخذت كتابا للقانون أتفحص محاوره، تستطيع القول منذ أن توقفت عن اجتياز مباريات التوظيف.

-إنه الوقت المناسب لتسعي نحو الأفضل...) يا لالة إلى منجحتيش ومجابش الله غادي تكوني سكرتيرة تاعي. ها...؟)

ابتسمت خديجة تحدق بالأرض رضا -ما أجمل النساء في تلك اللحظات، حين يقابلنك بابتسامتهن الوازنة على القلب- وقد فاضت نفسها عشقا أخويا لنبالة هذا الرجل الذي كان كملاك أرسل من السماء لأجلها، فما قدمه لها كان فرصة ذهبية نحو شيء لطالما أحبته وتمنته. القانون كان بالنسبة لها حياة ثانية. لطالما خيل لها وهي تقرأ أحد الفصول في المسطرة الجنائية أنها قاضية تنعت ب «القاضية الحديدية»، لكن شاء الله وما أراد فعل، فالتنظيف لم يكن لها قاتل الأحلام ولا حتى نظرات الغير، وإنما هو ذاك الجانب الذي تعب فيها من حمل الكتب والذهاب كل يوم للجامعة في سبيل مستقبل أفضل من الذي هي فيه، حطم روحها النضالية مقابل السعي لأجل لقمة خبز، إن هذا الجانب لا يعرف إلا الانتقاد والتأنيب، يحسسك أنك ارتكبت جرما في حق نفسك، فينطلق ضميرا زائفا يعذبك، ليس بذاك الضمير الذي يظهر عند الخطأ، وإنما ضمير الشيء الذي نحن بصدد إنجازه، فنحن عند إقدامنا على شيء، فإننا نضع كل قوانا فيه بخلق ضمير خاص به، يقوم صاحيا كلما فشلنا في الأمر. إننا وسط كل هذا الأمر نقوم بتجزيء أنفسنا في سبيل ما نقدم عليه من تخطيطات ومجهودات لأجل واقع أفضل، وإن جزئت الروح فانتظر ثورة قادمة.

ردت خديجة على عرضه وكل شيء يوحي أنها ستوافق بلا تردد من قوة هذه الفرصة:

-شكرا يا سيدي! أنا لا أعلم كيف أشكرك على كرمك المتهاطل هذا...

ابتسم ابتسامة الصانع الماهر للفرحة، الذي تحصل على الرضا اللازم علّه يصالح نفسه المتضررة، رضا لم ينعم به منذ مدة.

أردفت خديجة تقول:

-أنت تدري حالي البائسة هذه، وعرضك هذا منجاة لي، بكل صدق... لكن يا سيدي، إني وبكل وقاحة، أجل بوقاحة، سأرفض، كلا! كلا! ما كان علي قول هذه الكلمة، آه! أرجوك اعذرني... كان يجب أن أقول هذا باحترام، أني لا أستطيع قبول عرضك. أكرر اعتذاري سيدي المحترم... ربما يجب أن أذهب، أجل، إنه وقت ذهابي. أرجوك اعذرني مجددا.

قالت جملتها الأخيرة ضعيفة الصوت تائهة الفعل، وبعينيها بلل.

تبددت الابتسامة من على وجه المحامي، تلاطمت أحاسيسه بعنف، وتسمر في مكانه دون أن ينبس ببنت شفة، دون أن يعود إلى رشده، واختفت لديه موازين الأمور وهو من دعاها لمستقبل أفضل، ولم يشته بعدها أن يسأل عن السبب، حين تحسر على رفضها، وحين عاوده ذاك الاعتقاد أنه معذبها بالإلحاح والسؤال. أما هي فقد انصرفت على نحو خاطف كالريح تجر مشاعر الخيبة والانهزام، أما الاستسلام فقد كان يعشش بداخلها منذ مدة.

مضت في سبيل حالها مضيا أخفاها عن ناظري المحامي وسط زحمة المحطة البيضاء...

فهرس

تدعى خديجة..............................9
داخل المحطة 21
رجل الأعمال 27
حقيبة تجول 35
المحامي 43
وتجدد اللقاء 52
شيء من الماضي 66
قرار بائت 76

قال لي صديق ذات مرة، ونحن نحتسي قهوتنا الدافئة بجوانب الكلية، ونتفرس في وجوه الناس: «عاملة النظافة تكنس الغبار وإلى ما شابه، وتلقي نظرة على طلبة الكلية يمرون أمامها واحدا تلو الآخر، يلوحون بكتبهم وبأفكارهم المستخلصة. تحدق بعد كل نفس جديد تأخذه، لا أدري في ماذا تفكر؟ لكن الظاهر تمنيها أن تكون مكان أي أحد من الطلاب، وربما ليس هذا ما تفكر فيه، ربما لا ترى الطلاب فقط وإنما الأساتذة، وتتمنى لو كانت مكان أحدهم... أرأيت كيف نربط متمنيات الناس بمراتبنا، ولا نمنحهم حق التمني فيما هو أرفع من مراتبنا؟»

9 789920 542111

الثمن : 30 درهما